مختصر

تحذير الغافلين

من خطر الهُزء بالدين

تأليف

جمال الباشا



دار المأمون للنشر والتوزيع

مختصر

تحذيرُ الغافلين

من خَطَرِ الهُزْءِ بالدين

الطبعة الأولى/ دار طيبة – الرياض ١٩٩٧

الطبعة الثانية/ دار المأمون – ٢٠١٣

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٥/١٧٧٧)

٢٤٥
الباشا، جمال محمد
مختصر تحذير الغافلين من خطر الهزء بالدين/ جمال محمد الباشا.ـ
عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣
(١٥٢) ص
ر.إ: (١٧٧٧/ ٥/ ٢٠١٣).
الواصفات: / دفع المطاعن عن الإسلام//الإسلام/

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

(ISBN ٩٧٨ -٩٩٥٧ -٧٧ -١٧٢ -٠ ردمك)

لمراسلة المؤلف: albashah٦٧@ymail.com



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

مختصر

تحذير الغافلين

من خَطَر الهُزْء بالدين

تأليف

جمال الباشا



دار المأمون للنشر والتوزيع

قال تعالى:

﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]

قال رسولُ الله ﷺ:

(إنَّ العبدَ لَيَتكلَّمُ بالكَلِمَةِ ما يَتبيَّنُ فيها، يَزِلُّ بها في النـار أبعدَ ممَّا بينَ المَشرق والمَغرِب)

متفق عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله ذي الجلال والإكرام، الأوَّلِ بلا ابتداءٍ والآخرِ بلا انتهاء، خلَقَ الخلقَ من عدَم، وأوجبَ عبادتَه وتعظيمَه على الخلائق، وعرَّفَهم بجلاله وكماله وعظمته وكبريائه، فما قدَرَه حقَّ قدره منهم إلا صفوةُ خلقه وخُلَّصُ عباده.

وأصلِّي وأسلِّمُ على معلِّمِ الناسِ الخيرَ، البشيرِ النذيرِ، والسراجِ المُنير، محمدِ بنِ عبد الله، أعلمِ الخَلْقِ بالخالقِ، وأعرَفِهم بقدْرِه وجَلاله، وأطوَعِهم لأمرِه ونهيه، أتقى العباد وأخشاهُم له جلَّ في عُلاه.

وأترَضَّى عَمَّن رضيَ اللهُ عنهُم ورَضُوا عنه، ممَّن اختارَهم اللهُ لصُحبةِ نبيِّه ﷺ من السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، أَرَقِّ الناس أفئدَةً، وأصدقِهم لهجةً، وأعفِّهم لساناً، وأَرفعِهم مقاماً.

وأَتَرضَّى عمَّن تَبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد ...

فقد كتبتُ هذا الكتابَ قبل ثلاثٍ وعشرين سنة[1]، وقد جاءت الكتابةُ تلقائيةً غيرَ متكلَّفة، ولم تكن ظروفُ الكتابة مثاليةً، فقد كنت مُسافراً بالقطار مسافةً طويلةً، ودوَّنتُ مادَّتَه الأولى أثناءَ رحلتي، ومن ثمَّ قمتُ بنقل الشواهد وأقوال العلماء عندما تيسَّر لي ذلك لاحقاً، فلم أعتمد منهجَ البحث العلميِّ

(١) وكان عنوانه (الحذر بمعرفة أنَّ من هزأَ بالدين كفر) وقد بدا لي أن أبدله بما عليه الآن.

على أصوله المتَّبَعة لدى المؤلِّفين عندَ كتابة بحثٍ علميٍّ، وبالرغم من ذلك فقد كان مُرْضياً لي في تلك المرحلة إلى حدٍّ كبير، لأَنَّني استطعتُ أن أُوَصِّلَ لفكرتي وأُبرئَ ذمَّتي أمامَ الله تعالى، فلم أدَع الفكرةَ حبيسةَ صدري، مكتفياً ببثِّها في دروسٍ ومحاضراتٍ متباعدة، أو في مجالسَ خاصَّةٍ أو عامَّةٍ عند المناسبة.

لقد شعَرتُ بخطورةِ السكوتِ والإغفال لهذا الأمرِ الجَلَلِ، فكانت كتابتي نفثةَ مَصدور، ولوعَةَ مقهورٍ، نُصحاً ومحبَّةً لأَهلِ الإيمانِ، وتحذيراً وإنذاراً لأَهل الفسقِ والعصيان.

لقد يسَّر اللهُ تعالى طباعةَ الكتاب[1]، ونفدَتْ طبعتُه الأولى في فترةٍ معقولة، ولم أشأ أن أُعيدَ طباعتَه على الفَور، لأنَّني كنتُ أظنُّ أنَّ الكتابَ لكي يُطبَعَ من جديدٍ فإنَّه بحاجةٍ إلى مراجعةٍ متأنِّيةٍ، وإعادةِ إخراجٍ، بإضافةِ مباحثَ جديدةٍ تتمُّ بها الفائدةُ، مع اعتقادي أنَّ مادةَ الكتاب بطبعتِه الأولى كانت كافيةً في إثباتِ الفكرةِ وتأصيلها، والاحتجاجِ لها، والإقناع بها.

وبعد مُضيٍّ نحو عَقدين من الزمان، وقد وجدتُ نشاطاً في نفسي، وانشراحاً في صدري، وفسحةً في وقتي، قمتُ بطباعة الكتاب من جديد، لكي يخرُجَ بالصورةِ والقالَبِ الذي أقتنعُ به أولاً، ويكون مقنعاً للقارئ ثانياً.

لقد حاولتُ في هذا الكتابِ أن أُعالج مُشكِلاً خطيراً في أوساط المسلمين المحسوبين على الالتزام والصلاح والاستقامة، بل على العلمِ والدعوةِ وهدايةِ

---

(١) طبعته " دار طيبة للنشر والتوزيع " سنة ١٤١٧ هـ .

الخَلق، وهو وقوعهم في الاستهزاء بدينهم وقرآنهم ومقدَّساتهم من حيثُ لا يتصوَّرون أنه يهدِّدُ إيمانَهم ويُعرِّضه للنَسْفِ من القواعد.

لستُ مُندَفِعاً ولا مُتحمِّساً لإطلاق الأحكام جُزافاً على أبناء ملَّتي، وليس لديَّ شهوةٌ ولا رغبةٌ في تكفير إخواني في عقيدتي ـ معاذ الله ـ، لكنَّ رغبتي ورجائي أن آخذ بأيديهم إلى بَرِّ الأمان، وأن أصونَ إيمانَ أحبابي الذين أحبُّ لهم ما أحبُّ لنفسي، من أن ينقُضوه من حيثُ لا يشعرون.

فلا تعجَل عليَّ أيُّها الحبيبُ، ولا تتسرَّع في تصنيف الكتاب وكاتبه قبلَ أن تقرأَ كلَّ جُملةٍ فيه بتَؤدَةٍ ونَصَفٍ وتَجرُّدٍ للحَقِّ، وتزنَه بميزان الشرعِ والعدلِ، لا ميزان الهوى والظنِّ، فهي صيحةُ نذير، من شرٍّ مستطير، لعلَّها تُصادِفُ آذاناً صاغيةً وقلوباً صادقةً واعية، واللهُ من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

جمال الباشا

٧ شعبان/١٤٣٣

المقدِّمة

قد يتبادرُ إلى ذهنِ قارئِ عنوانِ الكتاب أنَّ الفئةَ المعنيةَ بفحواهُ هي طائفةُ أعداءِ الدين من الكفَرةِ والمشركين، على مِنوال سَلَفِهم من المكذِّبين للرسل في الغابرين، إلا أنَّ خطابَ الكتاب في الحقيقة غيرُ موجَّهٍ إلى هذه الفئة، ولا هي المقصودةُ من تأليفي له، ذلكم أنَّ سُخريةَ أهل الباطل من أهل الحقِّ ليست مُستغرَبةٍ ولا مُستهجَنةٍ، بل هي سنَّةُ المجرمين من قَبلُ، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الحجر:١١]

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام:١٠]

وقال تعالى عن نوحٍ عليه السلام:

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ [هود:٣٨]

وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ ﴾ [الجاثية]

لم يكن الباعثُ لي إذن على الكتابة في هذا الموضوع، أنَّ أعداءَ الإسلام بكلِّ أشكالهم وطوائفهم يَسخَرون من ديننا وقرآننا ونبيِّنا عليه الصلاة والسلام، فهذا أمرٌ لا يخرجُ عن دائرة السُّنَن القَدَرية والاجتماعية، لأنَّه نَتاجُ الحسد والحقد

والاستكبار على الحقِّ، وثمرةٌ نكِدَةٌ للغيِّ واتِّباع الهوى، ونُقصان العَقل والرُّشد.

ولقد ألَّفَ العديدُ من علماء الإسلام وأئمَّتِهم كتُباً ورسائلَ في الاستهزاء بالدين وخطورته، ولم تكن الفئةُ المقصودةُ في عُموم ما كُتِب تتجاوزُ أعداءَ المسلمين وخصومَهم من الكفَرَةِ والملحدين والعَلمانيين والحَداثيِّين والليبراليين ومن لَفَّ لفَّهُم، وبعضُها تضمَّن إشاراتٍ وعباراتٍ هامشيةً أحياناً، تُحذِّرُ أبناءَ المسلمين من الردَّة، بالوقوع في هذا الناقض الخطير من نواقض الإسلام العَشَرة، التي اتَّفق عليها علماء الإسلام بلا خلاف، وهذه الإشارات كانت كذلك تشيرُ في الغالِب إلى عباراتٍ فيها امتهانٌ لاسم الله تعالى، أو انتقاصٌ لكُتُبِهِ أو رسُلِه ونحو ذلك مما يصدُرُ عن الفَسَقة من عُصاة المسلمين، تحذِّرُهم من الردَّة عن الإسلام بذلك.

لقد أجادَ علماؤنا وأفادوا، وذكَّروا فنَصَحوا لربِّهم ولكتابهم ولرسولهم ولدينهم وكذلك كان نصحُهم لأَبناء مِلَّتِهم.

لعلَّك أخي الكريمُ تتساءلُ فتقول: إذا كان ذلكَ كذلك، فما الداعي إذن لتأليف مثل هذه الرسالة؟ وما الذي ستُضيفُه على ما كتَبَه الأوَّلون؟ ومَن هي الفئةُ المعنيَّةُ التي تستهدِفُها؟

فأجيب :

إنَّ الكتابةَ في هذا الموضوع قد فرَضَت نفسَها عليَّ فلم أجِد مَناصاً منها، ووجدتُ نفسي مُضطرًّا لها، حينما رأيتُ موجةَ الهزْل والعبَث تمتدُّ إلى أبناء

المساجد، وطلبة العلم، وقُرَّاء القُرآن، وحمَلَةِ الشهادات العُليا في علوم الشريعة، بل أقولها ـ والقلمُ يرتجفُ في يدي ـ قد وصلَ هذا الداءُ الفتَّاكُ إلى دعاةٍ كبار يتصدَّون لتعليم الناس وهدايتهم، ويتصدَّرون المنابرَ والمحافلَ الخطابيةَ والدعويةَ والكتابية، والناسُ تنظرُ إليهم بعين الإكبار والإجلال، وتتَّخِذُ منهم قدواتٍ صالحةً في المجتمع !!

كلُّ من ذكرتُ من هذه الأصناف المحترمة قد طالها الوباءُ، فتعاظَمَ بذلك البلاءُ، وصار (فيروس) الهزْل ضارباً في المجتمع بأسره ـ إلا ما نَدَر ـ حتَّى أصبح طبعاً وخُلُقاً في الناس، فيعدُّون صاحبَ الشخصية الفُكاهية الهزْلية الساخرة فيهم محموداً، دَمْثَ الخلُق، حَسَنَ المعشر، قريباً من قلوب الناس، فيقولون: ما ألطفَه ما أظرفَه، وقد لا يساوي في ميزان الرجولة والمروءة مثقالَ ذرَّة!![1]

لقد رأيتُني مشفِقاً محزوناً، وقلبي ينزِفُ على هؤلاء الغافلين وهم يجازفون بدينهم لأَجل إضحاك الآخرين من حولهم، وقد جعلوا الدينَ والمقدَّسات مادَّةً للَّهوِ والعَبَث والفُكاهة في أحاديثهم، يتندَّرون بها في مجالسهم ! وكأنَّ كلَّ ما سوى أمورِ الدين المعظَّمةِ على كثرتها لا تكفي لإشباعِ نَهَمهم وإرضاءِ نزَعاتهم، فيجترِئون على المقدَّسات، غافلين أو متغافلين عن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] !!

---

(١) سوف أبيِّنُ في فصل لاحق أنَّ ديننا لا يذمُّ المزاح والدعابة بإطلاق، وسأذكر ضوابط وحدود ذلك.

لستُ مبالغاً إن قُلتُ إنَّ هذا الداءَ الخطيرَ أصبحَ ظاهرةً في أوساط "الصالحين" والمفترض أنَّهم أهلُ الدين وحُماتُه الغيورون عليه. وقد نشأتُ – ولله الحمدُ– في المساجد، مواكباً لهذه الصحوةِ المباركة مرحَلةً مرحلة، وأنا على تواصلٍ مباشرٍ ومستمرٍّ مع أجيالٍ من أبناء العمل الإسلامي بكافَّةِ اتِّجاهاتهم، مِمَّن اختاروا طريقَ الهداية والصلاح والفضيلة، طريقَ مرضاة الله تعالى وطاعته، طامعين بجنَّته ورضوانه.

لقد صُدِمتُ مِراراً وأنا ناشئٌ في بداية الطريق، بعباراتٍ أسمَعُها من فضلاءَ وقدواتٍ، لهم مكانتُهم العلميةُ والدعوية، فيها سخريةٌ وهَزْلٌ لا أرتضيه، وكنتُ أشعرُ في قرارةِ نفسي أنَّها تخدِشُ الإيمانَ، وتُسقِطُ من عَين الرحمن، ولكنِّي كنتُ أحتفظُ بمشاعري لنفسي، لأنِّي كنتُ في بدايات التحصيل، ولم يكن لديَّ القدرُ اللازمُ من الحجَّة، ولا الملَكَةِ التي تؤهِّلُني للردِّ عليهم ومُناصَحتِهم.

وكنتُ كلَّما مرَّت الأيامُ أسمَعُ المزيدَ والمزيدَ من تلك العبارات الساخرة وكثيرٌ منها فيه مساسٌ مباشرٌ بالقُرآن، وتوظيفٌ هزْليٌّ مُضحِكٌ لآياته البيِّنات، من حمَلَة القُرآن وقُرَّائه من أَهل المساجد، في مجالسِهم ومُسامراتهم وولائمهم، حتَّى ضاقَ لذلك صدري، وامتعَضَت نفسي، وشعرتُ بأنَّ الأمرَ جَلَلٌ، فبدأتُ أوجِّهُ جزءًا كبيرًا من مُطالعاتي في دراسة هذا الناقِض وخطورته، بتأصيلاته وتفريعاته، وتَتبُّع أكبر قدرٍ ممكنٍ من فتاوى علماء الإسلام في الماضي والحاضر، وحاولتُ أن أستقصيَ جميعَ ما تناثرَ في كُتُبهم من أطرافِ المسألة، لكي يكونَ لديَّ تصوُّرٌ شاملٌ عنها، ولم تكن غايتي آنذاك الكتابة في الموضوع، وإنما أردتُ الانتفاعَ به لنفسي أولاً، ثمَّ نُصحَ أحبابي وإخواني بقدر ما أستطيع، وتحذيرهم

من خطر ما هم فيه، وهم لا يُبالون بما يصدُرُ منهم، وأنا أَجزمُ أنَّ عامَّتَهم عندما يقرؤون عن موضوع الاستهزاء بالدين، تذهبُ أذهانُهم بعيدًا نحو أعداءِ الـدين من الكافرين أو العصاة من المستهترين الفاجرين، ولا يخطُرُ ببال أَحَدِهم أَنَّه قد يكونُ هو ذاتُه معنياً بهذه النصوص الخطيرة، المستفيضة، والتي هي موضعُ إجماعٍ على رِدَّةِ صاحبها، حتَّى لو كان مسلماً، مصلياً، صائماً، قائمـاً، بـل ومجاهـدًا في سبيل الله، محباً لله ورسوله !!

وهذا أخطرُ ما في الأمر، أن يرى المرءُ نفسَه بمنأىً عن الخطـاب عنـد الأمـر والنهي، وأنَّه فوقَ الشُّبُهات، فيكونُ حالُه كحال الغافلين الذين يقتَرِفون عظائِمَ الأُمور، وهي في أعيُنِهم أدَقُّ من الشَعر، ويتلفَّظون بمساخِطِ الله تعالى التي تهوي بأصحابها في النار سبعينَ خريفاً، ولا يُلقون لها بالاً، ويُخشى أن يكونوا ممَّن قال اللهُ تعـالى في حقِّهـم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ **[الكهف]**.

لقد صارَ هذا الموضوعُ هاجساً يؤرِّقُني، وأنا أسمعُ الهزْلَ المتكرِّرَ في كلِّ يـوم، وقد اتَّسَعَت دائِرَةُ معرفتي وإلمامي بالموضوع، وجَمعتُ فيه مـادَّةً كافيـةً للإقنـاع، حفِظْتُ الكثيرَ منها لكثرةِ استشهادي بها في المناسبات والمحاضرات وفيهـا عديـدٌ من الآثـار وأقـوالِ أهـلِ العلـم الكبـار، وكنـتُ أحيـلُ السـامعينَ إلى الكُتـب والرسائِلِ والفتاوى التي تناوَلَت هذه المسألةَ ليطَّلِعوا عليها، وينتفعوا بها.

كان تجاوبُ العديدِ منهم إيجابياً ولله الحمد والمنَّة، وكـثيرٌ مـن هـؤلاء طلبـةُ علمٍ صُلَحاء، ومشايخُ فُضلاء، لم تأخذهم العزَّةُ بالإثم كحـال بعضِـهم الآخـر،

وقد طلب منِّي الكثيرون أن أجمعَ مادَّةَ هذه المسألةِ التي أُدَنـدِنُ حولَهـا في رسـالةٍ مطبوعةٍ، لكي ينتفعَ بها عامَّةُ الناس، فشـرَحَ اللهُ صـدري لـذلك، ووجـدتُ في نفسي هِمَّةً مفاجِئةً وأنا مُنطلِقٌ في سفرٍ يستغرقُ ساعاتٍ طويلـةً في القطـار، قـد تذهَبُ بغير كبير فائدة، فأمسكتُ بقلمي، وأخرجتُ قِرطاسي، وبدأتُ أخطُّ مـا يُمليه عليَّ فكري ووجداني، وتجلَّت النصوصُ والأقوالُ التي كنتُ أتكلَّـمُ بهـا أمامَ عيني، فرُحتُ أنتقي منها وأستدلُّ بها، وهذا من فضل الله عليَّ، أن فتحَ لي بابَ أجرٍ بالكتابة في علمٍ يَنتَفِعُ به الناسُ ما شاءَ اللهُ مِـن الزمـان والمكـان، فلَـهُ المِنَّةُ والثَناءُ الحَسَن.

لقد كان شعوري عند الكتابة مزيجاً من المحبَّة والحُزنِ والخوفِ في آنٍ واحد !

أمَّا المحبَّةُ فهي لإخواني الذين أتمنَّى لهم كلَّ الخير، وأنا أُقَدِّمُ لهم من العلـم ما ينفعُهم ويحفظُ عليهم دينَهم، ويرتفعُ بهم عن منازلِ أهلِ اللهو واللَّعِـب إلى منازِلِ أهلِ الجدِّ والهمَّةِ العالية.

وأمَّا حُزني ووجَعُ قلبي، فهو لأَجلهم، لأَنَّهم ينالون من دينهم من حيـثُ لا يشعرون، ويَسقُطون من عين مليكهم وهم سادرون.

وأمَّا الخوفُ، فقد كان يملأُ قلبي أن لا يكون هذا الجيلُ مؤهَّلاً ليقودَ الأمَّةَ نحو التغيير المنشود في هذه المرحلة، فما هذا بحالِ جيلِ النصر والتمكين والتحرُّر !!

كنتُ أتساءَلُ على الدوام: كيف يطلُبُ العِزَّةَ والرفعةَ لدينه وأمَّته مَن رضيَ لنفسه أن يكونَ أداةً من أدوات الحَطِّ من قدرها من خـلال الاسـتخفاف والهـزء بمقدَّساتها !

كيف نطالبُ أعداءَنا وخُصومَنا بأن يُعظِّموا حُرُماتنا وشعائرَ ديننا ويحترموا رموزَنا، ونحنُ لا نفعلُ ذلك؟!

كيف نرجو من ربِّنا أن ينصرَنا ويرفعَ شأنَنا بين الأُمَم، ودينُنا في نفوسنا وعلى ألسنتنا غيرُ مُصانِ الجَناب؟!

لعلَّك تتساءَلُ الآنَ، وبعد هذه المقدِّمات، عن أيِّ صوَر الاستهزاءِ بالدين تتحدَّث، وكيف يمكنُ لطلبةِ العلم والمشايخ وحَمَلَةِ القُرآن أَن يستهزئوا بدينهم؟!

ولكي أضعَكَ في تصَوُّر المسألة وحقيقَتها، سوف أذكرُ لك صورةً واحدةً من الصور التي ستأتي عليها لاحقاً في فصول الكتاب، في مشهدٍ من مشاهِدِ الاستهزاءِ بالقُرآن من حملةِ القُرآن، فإليكها :

اجتمعَ جماعةٌ منهم على مائدةِ الإفطار عندَ أحدِهم في ليلةٍ من ليالي شهر رمضان المبارك، فقدَّمَ لهم الطعامَ ونَسيَ تقديمَ الخُبز، فماذا كان؟!

- أحدُهم : ماليَ لا أرى الخبزَ أم كان من الغائبين؟
- صاحبُ الوليمة: سآتيكَ به قبلَ أن تقومَ من مقامِك وإنِّي عليه لقويٌّ أمين.
- شخصٌ ثالثٌ للأوَّل: وماذا تفعلون بالخبز؟! ولكم في العَدَس أُسوَةٌ حسَنَة.

ومن ثمَّ .. قَهقَهاتٌ تملأُ الآفاق !!!

هذه صورةٌ من آلافِ صوَر الهزْل المُرعِب التي تتكرَّرُ في عالمنا الإسلامي اليوم، والتي كانت الباعثَ لي على الكتابةِ في هذا الموضوع، واللهَ أسألُ أن

ينفَعَ به كلَّ من قرأَه، وأن يفتَحَ له القلوبَ والعقولَ، ويهـدي بـه مـن ضـلال، ويُبَصِّر به من عمى، إنَّه خيرُ مأمول، وأكرمُ مسؤول.

كتبـه

الفقير إلى عفو ربِّه

جمال الباشا

١٣ـــ ربيع الثاني/ ١٤١١

وظيفة اللِّســـان

خلَقَ اللهُ تعالى اللِّسانَ في الإنسانِ لوَظائِفَ عديدَةٍ يقومُ بأدائِها، فيها تحقيقُ مَصالحَ عظيمَةٍ في الدنيا والآخرة، فبه ينطِقُ بالشهادة التي يصيرُ بها مُسلِماً، وبه يذكُرُ اللهَ ويُمَجِّدُه ويثني عليه، وبه يدعوه، وبه يدعو إليه، وبه يتحدَّثُ بنِعَمه، وبه يتلو القُرآن، وبه يُصلِّي على النبيِّ ﷺ، وبه يُعلِّم الناسَ الخير، ويأمُرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، وبه يُصلِحُ ذاتَ البَين، وبه يكسِبُ قلوبَ الخَلق، وبه يُدخِلُ السُّرورَ إلى قلوبهم بالكلِمَةِ الطيِّبة وقولِ الحُسنى.

وباللسان يُعبِّرُ الإنسانُ عمَّا في خاطِره، وبه يتخاطَبُ مع الآخرين ويتفاهَمُ معَهم، وهو من أعظَم أسباب الأُلفَةِ والموَدَّةِ والتواصلِ مع الناس.

ولكنَّه سلاحٌ ذو حدَّين، وحدُّه الثاني في المقابل خطيرٌ للغاية، فكما أنَّه قد يرفَعُ العبدَ أعلى الدرجات، فإنَّه قد يهوي به إلى أسفَل الدَّرَكات.

وآفاتُ اللسانِ كثيرَةٌ، منها ما لا يُخرِجُ العبدَ من المِلَّة، ولكنَّه يحلُّ به عليه سخطُ ربِّ العالمين، كالكذب، والقَذف، وشهادةِ الزُّور، والغيبة، والنميمة، واليمين الغَموس، والهَمز واللَّمز، والفُحش، وإفسادِ ذاتِ البَين، والجِدال بالباطل، وقَولِ أُفٍّ للوالدين، والتَشَدُّقِ والثَرثَرَةِ، وإفشاءِ السرِّ، والسُّخريةِ من الناس وازدرائِهم.

وأعظمُ آفاتِ اللسان خطراً هو ما يوقِعُ المرءَ في الشرك والكفر ـ عياذاً بالله ـ كدعاء غير الله تعالى، والقول على الله بغير علم، والصدُّ عن سبيل الله، وإيذاءِ

اللهِ ورسوله، وشتمِ الذاتِ الإلهيةِ أو الرُّسُلِ الكِرامِ أو الدين الحقِّ، وكذلك الاستهزاءُ بما أمرَ اللهُ تعالى بتعظيمه من شعائرِ الدين وحُرُماته.

وكما أنَّ هذا العضوَ الصغيرَ قد يؤدِّي بالعبد في الدنيا إلى القتل والحبس والعقوبات المؤلمةِ وعَداوةِ الخَلق، وصاحبُه مسؤولٌ ومُحاسَبٌ على ما يتلفَّظ به، فكذلك في الآخرة، قد يؤدِّي بالعبد إلى دخول العذاب الأليم المقيم في دار الجحيم، وهو مُحاسَبٌ على كلِّ ما يتلفَّظُ به، قال تعالى:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]

وهذه الآثارُ الناتجةُ عن اللِّسان لم تكن خطيرةً إلى هذا الحدِّ إلا لأنَّ اللِّسان هو من مُخرَجات القلب وانعكاسات الباطن، وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضَح، ولا ينفكُّ الباطنُ عن الظاهر إلا في مواضِعَ مُستثناةٍ، كحال الإكراه الذي لا يكون العبدُ فيه مختاراً، وأمورٍ أخرى تمنَع إرادةَ الظاهر، سنبيِّنُها لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ما النجاة؟ وكيف العصمة؟

إنَّ سبيلَ النجاةِ من آفـاتِ اللسـانِ هـو بلـزوم الصَّـمت، والتريُّـث قبـلَ الكلام، فلا كلامَ إلا إذا دَعَت الحاجة، وظهَرَت المصلحة، وقد ألَّفَ العديدُ مـن العلماء كتُباً في "الصمت"، لأنَّه الأصلُ في السلامة، والإنسـانُ أسـيرٌ لكلامـه إذا تكلَّمَ، وآسِرٌ لكلامه قبل أن يتكلّم، ومن كثُرَ كلامُهُ كثُرَ سقَطُه.

قال عليه الصلاة والسلام: (مَن صمَتَ نجا)[1].

وقد فطِنَ لذلك حَبْرُ الأمَّةِ ابنُ عباس رضي الله عنه، فكان يُخاطب لسانَه قائلاً: "يـا لسانُ، قل خيراً تغنَمْ، أو اسكتْ عن سوءٍ تسلَمْ".

ماذا لو جَعَل الصالحون هذا الخطابَ شعارًا في تقويم ألسنَتِهم !

فإنَّ السلامة لا يَعدِلُها شيء.

(١) رواه الترمذي: ٢٥٠١ وقال: صحيح ، وقال ابن حجر في الفتح (٣١٥/١١) : رواته ثقات ، وأحمد شاكر في تحقيقه المسند (١٤٠/١٠) وقال : صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٣٦٧

تأصيلٌ بديعٌ في أقسام الكلام

قال الإمامُ الغزاليُّ رحمه الله:

[إنَّ الكلامَ أربعةُ أقسام: قسم هو ضررٌ مَحضٌ، وقسمٌ هو نفعٌ محضٌ، وقسم فيه ضررٌ ومنفعةٌ، وقسمٌ ليس فيه ضررٌ ولا منفعة.

أمَّا الذي هو ضرَرٌ محضٌ، فلا بُدَّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرَرٌ ومنفعةٌ لا تفي بالضرر، وأمَّا ما لا منفعَةَ فيه ولا ضَرَر فهو فضولٌ، والاشتغالُ به تضييعُ زمان، وهو عينُ الخُسران، فلا يبقى إلا القِسم الرابع،

فقد سقَط ثلاثةُ أرباع الكلام وبقيَ ربعٌ، وهذا الربعُ فيه خطرٌ إذ يمتزج بما فيه إثمٌ من دقائق الرياء والتصنُّع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دَرْكُه] [(١)].

(١) إحياء علوم الدين/ للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (٣/ ١١٢-١١١) بتصرف.

أمرُ الشارع بحفظ اللسان وتحذيره من خطر انفلاته

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤]

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٣]

واللَّغوُ: ما لا يُعتَدُّ به من كلامٍ وغَيره، ولا يُحصَلُ منه على فائدَةٍ ولا نَفع[١].

فهو كلُّ كلام لا مصلحة دينية أو دنيوية فيه، فأهل الإيمان لا ينطقون إلا بما يظهرُ لهم فيه مصلحة، وإلا أمسكوا.

وقد حثَّ رسولُ الله ﷺ على قول الخير أو الصَّمت فقال: (**مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فليقُل خيراً أو ليسكت**)[٢].

وحذَّرَ أمَّتَه من الغَفلةِ عن عَواقِبِ الأُمور ومآلاتِها بإفلات خِطام اللفظ وحَلِّ زمامه، حينما لا يُلقي المسلمُ لما يتكلَّمُ به بالاً، فيكون عليه وبالاً !!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه سمِعَ النبيَّ ﷺ يقول: (**إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلِمة**

(١) كما في المعجم الوسيط.

(٢) أخرجه البخاري: ٦٤٧٦، ومسلم: ٤٧، وأحمد في المسند (١١٤/١٠) بتحقيق أحمد شاكر.

ما يتبيَّن فيها، يزلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب)[1]

وعنه أَيضاً قال: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ: ما أَكثرُ ما يُدخل النَّاسَ الجَنَّةَ؟

قال: (**تقوى اللَّهِ وحُسْنُ الخُلُق**)، قيل: فما أَكثَرُ ما يُدخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟

قال: (الأجوفان: الفَمُ والفَرْجُ)[2].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، قال: سمعتُ رسولَ اللهﷺ يقول:

(أكثرُ خَطايا ابنِ آدمَ في لسانه)[3]

وعن سفيانَ بنِ عبدِ الله الثَقَفيِّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله ، حَدِّثني بأمرٍ أَعتَصِمُ به ، قال: (**قُل رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ استَقِم**) ، قلتُ: يا رسولَ الله ، ما أَكثَرَ ما تخافُ علَيَّ؟

فأخذَ رسولُ الله ﷺ بلسانِ نفسِه ثمَّ قال: (**هذا**) [4].

وعن عُقبَةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، ما النجاةُ؟

قال:(**أَمسِكْ عَلَيكَ لِسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بَيتُكَ، وابكِ على خطيئَتك**)[5].

---

(١) رواه البخاري ٦٤٧٧ ومسلم ٢٩٨٨.

(٢) حسنه الألباني في (صحيح ابن ماجه:٣٤٤٣)، وصححه أحمد شاكر في تخريجه لمسند أحمد (١٥/٣٢).

(٣) رواه الطبراني وصححه الألباني قي (السلسلة الصحيحة : ٥٣٤)

(٤) صححه الألباني في (صحيح الترمذي :٢٤١٠)، وكذا في (صحيح ابن ماجه : ٣٢٢٣).

(٥) رواه الترمذي: وقال: حديث حسن ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٠٦

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه رفعه، قال: (**إذا أصبحَ ابنُ آدَمَ فإنَّ الأعضاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللسانَ فتقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا فإنَّما نحنُ بكَ، فإن استقمتَ استقمنا، وإنْ اعوَجَجْتَ اعوجَجْنا**)[1].

وعن زيدٍ بنِ أسلمَ عن أبيه قال دخلَ عمرُ على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما وهو آخِذٌ بلسانه وهو يقول: (لساني أورَدَني الموارِدَ)[2].

قال الإمامُ ابنُ بَطَّةَ العُكبُريُّ رحمه الله مُعَلِّقًا على ذلك:

[هذا يا إخواني الصدِّيقُ الأكبرُ يتخوَّفُ على نفسِه من الزَّيغِ إن هو خالَفَ شيئاً من أمرِ نبيِّه ﷺ، فماذا عسى أن يكونَ مِن زمانٍ أضحى أهلُه يستهزئون بنبيِّهم وبأوامِرِه، ويتباهَونَ بمُخالَفَته، ويَسخَرون بسُنَّته، نسألُ اللهَ العِصمَةَ مِن الزَّلَل، والنَّجاةَ من سوءِ العَمَل][3].

وعن عَنْبَسَ بنِ عُقبَةَ التَّيميِّ قال:

قال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: (والذي لا إلهَ غيرُهُ، ما على الأرض شيءٌ أفقَرُ ـ وقال أبو معاويةَ: أَحوَجُ ـ إلى طولِ سِجنٍ من لسان)[4].

---

(١) صححه الألباني في (صحيح الترمذي: ٢٤٠٧)، وكذا في (صحيح الجامع: ٣٥١).

(٢) صححه الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة (٧١/٢) وقال: على شرط البخاري، وكذا في (صحيح الترغيب والترهيب: ٢٨٧٣).

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية / للإمام ابن بطة العكبري(٢٤٦/١).

(٤) (صحيح الترغيب والترهيب للألباني: ٢٨٥٨)، وقال فيه: صحيح موقوف.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه :(أنصِفْ أُذُنيكَ من فيك، فإنَّما جُعِلَتْ لـك أُذُنـانِ وَفَمٌ واحِدٌ لِتَسمَعَ أَكثَرَ مِمَّا تَتَكلَّمُ به)[1].

قال الإمام الأوزاعيُّ رحمه الله:

[كتبَ إلينا عمرُ بنُ عبدِ العَزيز رضي الله عنه: أمَّا بعدُ، فإنَّهُ مَن أكثَـرَ ذِكـرَ المـوتِ رَضيَ من الدُّنيا باليَسير، ومَن عَدَّ كلامَهُ من عَمَلِه قَلَّ كلامُهُ فيما لا ينفَعُه][2].

وقال طاووس بن كيسان :[لساني سبُعٌ إن أرسلتُهُ أكلني][3].

وعن سلمةُ بنُ دينار المدني قال:

[ينبغي للمؤمن أن يكونَ أشدَّ حِفظًا للسانِه منه لَموضِعِ قدميه][4].

وقال مَخْلَدُ بنُ الحسين:

[ما تكلَّمتُ منذُ خمسينَ سنةً بكلِمةٍ أريدُ أن أعتَذِرَ منها][5]

---

(١) رواه أحمد في (الزهد) ص ٢٧١

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) ص٢٩٦ ، وابو نعيم في الحلية (٩٠/٥)، وابن المبارك في (الزهد/٣٨٣)، كتاب (الصمت وآداب اللسان) لابن أبي الدنيا والحديث إسناده ضعيف، بذلك حكم أبو إسحاق الحويني في تخريجه للكتاب الأخير برقم ٣٥.

(٣) حكم بصحة إسناده أبو إسحاق الحويني في تخريج كتاب(الصمت وآداب اللسان) لابن أبي الدنيا، برقم ٣٩ .

(٤) (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ الإمام الحافظ أبو نعيم) في ترجمة سلمة بن دينار، ٤٠١٧

(٥) المصدر السابق، في ترجمة مخلد بن الحسين، ص٢٦٦

وعن عَطاءٍ بنِ أبي رَباحٍ قال:

[إنَّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضولَ الكلام، وكانوا يَعُدُّون فضولَ الكلام ما عدا كتاب الله تبارك وتعالى أن تقرأه، أو تأمرَ بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطقَ بحاجتك في معيشتك التي لا بُدَّ لك منها، أتنكرون: (وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين)،(عن اليمين وعن الشمال قعيد* ما يلفظُ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد) أما يستحيي أحدُكم أنه لو نُشرت عليه صحيفتُه التي أملى صدْرَ نهارِه، كان أكثرَ ما فيها ليس من أمر دينه ولا دُنياه](١).

وقال الإمام النوويُّ رحمه الله:

[اعلم أنَّهُ ينبَغي لكُلِّ مُكَلَّفٍ أن يَحفَظَ لسانَهُ عن جميعِ الكلامِ، إلاَّ كلاماً ظَهَرَتْ فيه المصلحةُ، ومتى استوى الكلامُ وَتركُهُ في المصلحةِ، فالسنَّةُ الإمساكُ عنه، لأنَّهُ قد يَنْجَرُّ الكلامُ المُباحُ إلى حرامٍ أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامةُ لا يعدِلُهَا شيء](٢).

قالَ أبو الفَتحِ البَستيُّ (٣):

تكلَّم وسدِّد ما استطعتَ فإنَّما ... كلامُكَ حيٌّ والسكوتُ جمادُ
فإن لم تجِد قولاً سديداً تقولُه ... فصمتُكَ عن غيرِ السدادِ سَدادُ

---

(١) الزهد لابن السري (٢/ ٥٣٦).

(٢) (رياض الصالحين) ص٥٤٨، باب "الأمور المنهي عنها".

(٣) أدب الدنيا والدين / للماوردي : ٢٣٦

تعظيم الله وإجلاله من ضروريات الإيمان
فلا إيمان بلا تعظيم

إنَّ تعظيم الله تعالى وتعظيمَ شعائرِه سبحانه ، من أجلِّ العباداتِ والأعمالِ القلبية ، التي يتعيَّنُ تحقيقُها والقيامُ بها ، وتربيةُ الناس عليها ، وإنَّ الإيمان بالله تعالى مبنيٌّ على التعظيم والإجلال له جل وعلا.

قال الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله في منزلةِ التَّعظيم:

[وهذه المنزلةُ تابعةٌ للمعرفة، فعلى قَدْر المعرفةِ يكونُ تعظيمُ الربِّ تعالى في القلب، وأعرفُ الناس به، أشدُّهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذمَّ اللهُ تعالى مَن لم يُعظِّمْهُ حَقَّ عظمته، ولا عرَفَه حقَّ معرفته، ولا وصَفَه حقَّ صفته][1].

وقال الإمامُ السعديُّ رحمه الله:

[وهو سبحانَه وتعالى الموصوفُ بصفاتِ المَجدِ، والكِبرياءِ، والعظَمة، والجَلال، الذي هو أكبرُ من كلِّ شيءٍ، وأعظمُ من كلِّ شيءٍ، وأجلُّ وأعلى، وله التعظيمُ والإجلالُ في قلوبِ أوليائِهِ وأصفيائِه، قد مُلِئَتْ قلوبُهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه][2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٤٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٩٤٦، فصل ملحق بالكتاب : أصول وكليات من أصول التفسير.

وتعظيمُ العبدِ لِرَبِّه وإن كانَ عمَلاً قلبياً، إلا أنَّه لا يتحقَّقُ ولا يتمُّ إلا بأعمال الجوارح، ولا بُدَّ له من ذلك لتحقيق معنى العبودية، وهي اللسانُ وسائرُ الأعضاء، فكلُّ العبادات إنَّما شُرِعَتْ لإظهارِ ذلكَ التعظيمِ وإشهاره.

فالتكبيرُ والتهليلُ والأذانُ، وسائرُ الأذكارِ، فيها تعظيمُ الرَّبِّ جَلَّ جلالُه، وكذا جميعُ أعمال الجوارح التعبُّدية، كالصلاة، وفيها وضعُ الجَبهةِ في الأرض ذُلاً لعظَمَته، وحَنيُ الظهر بالركوع خضوعاً لهَيبَتِه.

وكذا الحجُّ، ركنُ الإسلام الخامسُ، تدلُّك سائِرُ مناسِكه وأعمالِه على الغاية من تشريعه، فالإحرامُ والتلبيةُ والطوافُ، وحَلقُ الرأس، ووقفَةُ عرَفَة، والرَّجمُ، والنحرُ، كلُّها شُرِعت لأجلِ التعظيم، ولذا قال تعالى بعد آياتِ الحَجِّ، في سورة الحجِّ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[الحج:٣٢].

فإذا كان الأمرُ كذلك، وهو أنَّ التعظيمَ يكونُ بالقلبِ واللسانِ وعملِ الجوارح، فإنَّ الاستخفافَ يكونُ بالقلب واللسان وعمَلِ الجوارح.

وإذا بدا الاستخفافُ على الظاهِرِ، بالقولِ أو الفعلِ، دَلَّ على انتفاءِ التعظيم القلبيِّ قَطعاً !!

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله:

[فمن اعتقدَ الوحدانيةَ في الألوهية لله سبحانه وتعالى، والرسالةَ لعبدِهِ ورسوله، ثُمَّ لم يُتبِعْ هذا الاعتقادَ موجِبَهُ من الإجلال والإكرام، الذي هو حالٌ في

القلب يظهرُ أثرُهُ علـى الجـوارحِ، بـل قارنَـهُ الاسـتخفافُ والتسـفيهُ والازدراءُ بالقول أو بالفعل، كانَ وجودُ ذلك الاعتقادِ كعدَمِه، وكـان ذلـك موجبـاً لفسـاد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح][1].

(١) التفسير الكبير (١٦/١٢٤).

الاستهزاء يُنافي التعظيمَ منافاةَ النقيضِ لنقيضِه

من قولِ الإمامِ ابنِ تَيميةَ الذي ختَمنا بـه الفصـلَ السـابقَ، نفـتَحُ البـابَ لِولوجِ هذا الأَصلِ الهامِّ، في عَدَمِ جَوازِ اجتماعِ النَّقيضَين، لا شَـرعاً ولا عقـلاً، فلا تعظيمَ مع استخفافٍ ألبتَّة !!

قال الإمامُ الرازيُّ رحمه الله: [إنَّ الاستهزاءَ بالدين كيفَ كانَ كُفرٌ بالله، وذلـك لأنَّ الاستهزاءَ يدلُّ على الاستخفافِ، والعُمـدَةُ الكـبرى في الإيمـانِ تعظـيمُ الله تعالى بأقصى الإمكان، والجمعُ بينَهما مُحال] [1].

وقال الشيخُ عبدُ الرحمن السعدي رحمه الله:[فإنَّ الاستهزاءَ بالله وآياتِه ورسولِه كفرٌ مُخرِجٌ عن الدين، لأنَّ أَصلَ الدين مبنيٌّ على تعظيم الله وتعظـيم دينـه ورُسُـلِه، والاستهزاءُ بشيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصل ومناقضٌ له أشدَّ المناقَضة][2].

ويقول كذلك: [وذلك أنَّ الواجبَ على كُلِّ مُكلَّفٍ في آيات الله الإيمانُ بها وتعظيمُها وإجلالُها وتفخيمُها، وهذا المقصودُ بإنزالها وهو الذي خلَقَ اللهُ الخَلقَ لأَجله، فضِدُّ الإيمانِ الكفرُ بها، وضِدُّ تعظيمِها الاستهزاءُ بها واحتقارُها][3].

وهذا أصلٌ عظيمٌ يـدورُ عليـه كفـرِ المُسـتهزِئ، وسـيأتي لاحقـاً في فصـلٍ مُستَقِلٍّ.

---

(١) التفسير الكبير (١٦/١٢٤).

(٢) (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص: ٣٤٢، عند تفسير الآية من سورة التوبة.

(٣) المصدر السابق (ص: ٢١٠).

أمرُه تعالى لعباده بخشيته ورهبته وتحذيرُهم من نفسه

قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]

وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[آل عمران:٣٠]

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]

ذلكم بأنَّ خشيةَ الله تعالى من المقامات القلبيَّةِ العاليةِ التي عليها مدارُ أعمال القلوب مع المحبَّةِ والرجاء .

قال الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله:

[القلبُ في سَيرِهِ إلى الله عزَّ وجَلَّ بمنزلةِ الطائرِ؛ فالمحبَّةُ رأسُه، والخوفُ والرجاءُ جناحاهُ، فمتى سلِمَ الرأسُ والجناحان فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قُطِعَ الرأسُ ماتَ الطائرُ، ومتى فُقِدَ الجناحان فهو عرضةٌ لكلِّ صائدٍ وكاسر][1].

فلا عبوديَّةَ في حال انتفاءِ إحدى هذه المقامات.

ثمَّ إنَّ الرجاءَ بلا خوفٍ أمنٌ، والله تعالى يقول:

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩]
فبخشية الله تعالى تزكو النفوسُ، ويستقيم السلوكُ، وتنضَبطُ الأقوالُ والأفعالُ، وتُحفَظُ الحقوقُ والحدودُ، وبفقدها تفسدُ كلُّ الأمور، ويقعُ كلُّ محظور.

---

(١) المصدر السابق (٣٩٠/١).

معنى الاستهزاء لغةً واصطلاحاً

الهُزْءُ: يأتي في اللغة ويُرادُ به أربَعَةُ مَعانٍ، هي؛ الكسرُ، والموتُ، والحركةُ، والسُّخريَةُ.

قالَ ابنُ مَنظور:

[هَزَأَ الشيءَ يَهْزَؤُه هَزْءاً كَسَره، وهَزَأَ الرجلُ: ماتَ. هزأ: الهَزَءُ والهُزؤ: السُّخرية، واستهزأ بِه: سخر. قال الأخفَشُ: "سخِرتُ منه، وسخِرتُ به، وضحكتُ منه، وضحكتُ به، وهزِئتُ منه، وهزِئتُ به، كلٌّ يُقالُ، والاسمُ السُّخريَةُ][1].

وقال ابنُ فارِس:

[هَزَأَ: الهاءُ والزاءُ والهمزَةُ، كلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ: هَزِئَ واستَهزَأَ، إذا سَخِرَ][2].

وأمَّا في الاصطلاح، فقد عرَّفَهُ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية ﷺبقوله: [هو حملُ الأقوالِ والأفعالِ على الهزْلِ واللَّعِب، لا على الجدِّ والحقيقة][3].

---

(١) لسان العرب (٤٦٥٩/٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥٢/٦).

(٣) الفتاوى الكبرى (٢٢/٦).

وعرَّفَهُ الإمامُ الغَزاليُّ رحمه الله بقوله:

[هو الاستِهانَةُ والتحقيرُ، والتنبيهُ علـى العُيـوبِ والنَّقـائِصِ، علـى وَجـهٍ يُضحَكُ منه، وقد يكونُ ذلك بالمُحاكاةِ في الفعل والقَول، وقـد يكـونُ بالإشـارة والإيماءِ][1].

والمرادُ هنا في بحثِنا، الاستهزاءُ الذي هو كفرٌ ورِدَّةٌ، وهو مـا كـان مؤدِّيـاً إلى تنقُّصِ ما عظَّمَهُ اللهُ تعالى، من أمرِ دينِه وحُرُماتِهِ، واستصغارِهِ في النفوسِ، بجعلِهِ مَوضِعاً للضَحِكِ واللَّعِب.

---

(١) إحياء علوم الدين (١٣١/٣).

مثال الاستهزاء من القُرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة]

وللعُلَماءِ في معنى الآيةِ أقوالٌ:

قال الإمامُ القُرطُبيُّ رحمه الله تعالى:

[هذه الآيةُ نزَلَت في غَزوَةِ تبوك، قال الطبريُّ وغيرُه عن قتادة: "بينا رسولُ اللهِ ﷺ يسيرُ في غَزوةِ تبوكَ ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يدَيه فقالوا: انظروا هذا يفتحُ قُصورَ الشَّامِ ويأخُذُ حُصونَ بني الأَصفَر! فأطلَعَهُ اللهُ سُبحانَهُ على ما في قلوبهم وما يَتَحَدَّثونَ به فقالَ: احبسوا عليَّ الرَّكبَ - ثمَّ أتاهُم فقالَ - قُلتُم كذا وكذا فَحَلفوا ما كُنَّا إلا نخوضُ ونلعَبُ، يريدون كنا غيرَ مُجِدِّينَ، وذَكَرَ الطَّبَريُّ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ قالَ: رأيتُ قائِلَ هذِهِ المقالَةِ وديعَةَ بنَ ثابِتٍ مُتَعلِّقاً بحقبِ ناقَةِ رَسول الله ﷺ يُماشيها والحِجارَةُ تنكبُه وهو يقول: إنَّما كُنَّا نخوضُ ونَلعَبُ، والنبيُّ ﷺ يقول: "أَبالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُم تَستَهزِئُونَ"[1].

"حَدَّثني يونُسُ، قَالَ: أَخبَرَنا ابنُ وَهْبٍ، قال: حَدَّثني هِشامُ بنُ سَعدٍ، عن زَيدِ بن أَسلَمَ، عن عبدِ الله بن عُمَرَ، قال: قال رَجُلٌ في غَزوَةِ تَبُوكَ في مَجلِس، ما رَأَينا مِثلَ قُرَّائِنا هؤلاءِ أَرغَبَ بُطونًا ولا أَكذَبَ أَلسِنَةً ولا أَجبَنَ عِندَ اللِّقاءِ،

---

(١) تفسير القرطبي - (٨/ ١٩٧-١٩٦).

فقالَ رَجُلٌ في المَجلِسِ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّـكَ مُنَـافِقٌ، لأُخبِـرَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ، فبَلَـغَ ذلكَ النَّبيَّ ﷺ، ونَزَلَ القُرآن".

قال عبدُ الله بنُ عُمَرَ: فأنا رَأَيتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبِ ناقةِ رَسُـول الله ﷺ، تَنْكُبُـهُ الحجارَةُ، وهو يقُولُ: يا رَسُولَ الله إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونلعَبُ، ورسَولُ الله ﷺ يقُولُ: {أَبِالله وآياتهِ ورسُولِهِ كُنتُمْ تستهزِئونَ لا تَعتَذِرُوا قد كَفَرتُمْ بعدَ إيمَانِكُمْ}..][1].

قالَ القاضي أبو بكرٍ بنُ العَرَبيِّ رحمه الله:

[لا يخلو أَن يكونَ ما قَالوهُ من ذلك جِدًّا أَو هَزْلا، وهو كيفما كان كفرٌ، فإنَّ الهَزْلَ بالكُفرِ كُفرٌ، لا خُلْفَ فيه بينَ الأُمَّةِ، فـإنَّ التحقِيـقَ أَخـو العلـمِ والحَـقِّ، والهَزْلَ أَخو الباطلِ والجهل][2].

قوله تعالى: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ على جِهَـةِ التَّـوبيخ، كأنَّـهُ يقولُ: لا تفعَلوا مـا لا ينفَـعُ، ثُـمَّ حَكَـمَ علـيهم بـالكُفرِ وعَـدَمِ الاعتِـذارِ مـن الذَّنب][3].

قالَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله في تفسيره:

[وقولُهُ: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتُم به][4].

---

(١) تفسير الطبري ٣١٠، دار هجر (٥٤٣/١١)، قال الوادعي في (صحيح أسباب النزول :١٢٢) : رجاله رجـال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يُخرج له مسلم إلا في الشواهد، وله شاهد بسند حسن.

(٢) الجامع لأحكام القُرآن (٣٩٧/٨).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ١٩٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢).

حُكم المستهزئ بآيات الله تعالى

إنَّ الحُكمَ بالكُفرِ على المستَهزِئِ باللهِ وآياتِهِ ورسولِهِ واضِحٌ وجَليٌّ مِن آيةِ التَّوبَةِ آنِفَةِ الذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [التوبة:٦٦] وهي نَصٌّ في ذلك كما تقَدَّم.

والكفرُ بعدَ الإيمانِ ردَّةٌ، فمَن كان مسلِماً مؤمِناً وصَدَرَ منه استهزاءٌ وسخريَةٌ على نحوِ ما فعَلَه أولئك النَّفَرُ كفَرَ وخَرَجَ من الإسلام بنَصِّ القُرآن.

ولا دليلَ لمن قال: إنَّ الآيَةَ نزَلَت في حقِّ طائفَةٍ من المنافقين ما دخلوا الإسلامَ قَطُّ إلا أنَّهُم يفهمون ذلك من قوله تعالى أوَّلَ القِصَّةِ: (يحذَرُ المنافقون...) ونَسيَ هؤلاءِ أنَّ اللهَ تعالى قد أثبَتَ لهم الإيمانَ ابتداءً ثمَّ وصَفَهم بالنفاقِ بعدَ مَقالَتِهم هذه، وهذه المقالةُ هي التي جَعَلَت القُرآن يصِفُهُم بهذه الصِّفَةِ، والقُرآن نَزَلَ بعدَ الحادِثَةِ لا قبلَها، وبعدَ الحادِثَةِ كانوا قد نافقوا، وسنبَيِّنُ تفصيلَ ذلك لاحقاً.

تعظيمُ اللّه تعالى يستلزمُ تعظيمَ حرُماته وشعائر دينه وملائكته ورسله وكتبه

عند التأمُّل في الآية نلاحظُ أمراً جديراً بالتنبيه، وهو أنَّها وصَفتْ قولَ الهازلين بأنَّه استهزاءٌ بالله وآياته ورسوله، مع أنَّ ظاهرَ قولِهم ليس فيه استهزاءٌ بالله، ولا بآياته، وحتى الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن صريحاً وإنَّما جاءَ تعريضاً، فقد تناولَ حديثُهم القُرَّاءَ، وهم مجموعةٌ من الصحابةِ الكرام، وفيهم الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ، وهذا دليلٌ واضحٌ على مفهومِ التلازُمِ بين هذه المقدَّسات، وأنَّها لا تَنفَكُّ عن بعضِها.

معلومٌ أنَّ ثَمَّ مُرسِلٌ ورسولٌ ورسالةٌ، وثَمَّ تَلازُمٌ وترابُطٌ بينَ هذه الثلاثةِ، فتعظيمُ أحدِها يستلزمُ تعظيمَ الباقي، والاستخفافُ بأحدِها يستلزمُ الاستخفافَ بالباقي.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله:

[فإنَّ الاستهزاءَ بهذه الأمورِ مُتلازمٌ، فإنَّ مَن استَهزَأَ بآياتِ الله تعالى التي جاءَ بها الرسولُ ﷺ فهو مستهزئٌ بالرسول ﷺ ضَرورَةً، ومَن استَهزَأَ بالرسول ﷺ، فهو مستهزِئٌ برسالتِه حقيقةً، ومن استهزأَ بآياتِ الله ورسوله فهو مستهزئٌ به، ومَن استهزأَ بالله، فهو مستهزئٌ بآياته ورسولهِ بطريق الأولى][1].

---

(١) تلخيص الاستغاثة ص٣٤٦.

قال الإمام علي القاري رحمه الله:

[مَن أهانَ الشَّريعةَ أو المسائِلَ التي لابدَّ منها كَفَرَ، ومَن ضَحِكَ سُخريةً مِن المتيمِّم كَفَر][1].

وقال الإمامُ النَّوَويُّ رحمه الله:

[أو قالَ وهو يتَعاطى قَدَحَ الخَمرِ أو يُقدِمُ على الزِّنى: "باسمِ اللهِ تعالى" استِخفافاً باسم اللهِ تعالى كفَرَ، ولو قالَ: لا أخافُ القيامةَ كفَر][2].

قال الإمامُ ابنُ حَزْمٍ رحمه الله، بعدَ ذكرِ الآيَةِ من سورَةِ التَّوبَة:

[وصَحَّ بالنَّصِّ أنَّ كُلَّ مَن استَهزَأَ باللهِ تعالى أو بمَلَكٍ من الملائكة، أو بنبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام، أو بآيةٍ من القُرآن، أو بفَريضةٍ من فرائِضِ الدين، فهي كلُّها آياتٌ لله تعالى، بعدَ بُلوغِ الحُجَّةِ إليه فهو كافر][3].

وقال بعدها:

[وسألوا أيضاً عمَّن قال: أنا أدري أنَّ الحَجَّ إلى مكَّةَ فرضٌ، ولكن لا أدري أهي بالحِجازِ أم بخُراسان أم بالأندلُس؟! وأنا أدري أنَّ الخنزيرَ حرامٌ، ولكن لا أدري أهو هذا الموصوفُ الأَقرَنُ أم الذي يُحرَثُ به؟!

---

(١) شرح ألفاظ الكفر ص٦٥.

(٢) "روضة الطالبين وعمدة المفتين " للإمام النووي(١٠/ ٦٧).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٤٢).

وجوابُنا هو أنَّ مَن قال هذا، فإن كـانَ جـاهلاً عُلِّـمَ ولا شـيءَ عليـه، فـإنَّ الشاشيِّين[1] لا يَعرِفون هذا إذا أسلَموا حتَّى يُعَلَّموا، وإن كان عالماً فهـو عابـثٌ مُستَهزِئٌ بآيات الله تعالى فهو كافرٌ مرتدٌّ، حلالُ الدَّمِ والمال][2].

ونَقَلَ الإمامُ السيوطيُّ عن القَرافيِّ المالكيِّ رحمهما اللهُ قولَه:

[اعلم أنَّه يجِبُ على كلِّ مُكلَّفٍ تعظيمُ الأنبياءِ بأَسرِهم، وكذلك الملائكةِ، ومَن نالَ مِن أعراضِهم شيئاً فقد كفرَ، سواءٌ كان بالتعريض أو بالتصريح، فمن قال في رجُلٍ يراهُ شديدَ البَطشِ: "هذا أقسى قلباً من مالِكٍ خازنِ النـار"، وقـالَ في رَجُلٍ رآهُ مشوَّهَ الخَلقِ: هذا أوحَشُ مِن مُنكَرٍ ونكيرٍ، فهو كافرٌ، إذا قـال ذلـك في مَعرِض النَّقصِ بالوَحاشَةِ، والقَساوَة][3].

وقالَ الإمام بدرُ الرَّشيدُ رحمه الله:

[لو قال: أعطِني بُرّاً أُعطيكَ يومَ القيامةِ شعيراً، أو على العكس، كَفَـرَ، أي لأنَّه صريحٌ في الاستهزاء][4].

---

(١) نسبة إلى (شاش) من بلاد ما وراء النهر.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٤٣).

(٣) عالم الملائكة الأبرار (ص ٥٨).

(٤) ألفاظ الكفر (٢١٢_ ٢١٣).

أمثلةٌ وقعَتْ تُشابِه ما قالَه منافقو تبوك

قال إدريسُ بنُ بَيْدكين بنِ عبدِ اللهِ التُركمانيُّ الحَنفيُّ[1]:

[ومِن البِدَعِ القَوليَّةِ : مَزْحُ الإنسانِ بشيءٍ من كتاب الله تعالى ممَّا يكفُرُ فاعلُه أو يُذَمُّ؛ أمَّا الذي يكفُرُ فاعِلُهُ، كمَن يصعَدُ في مكانٍ مُرتَفِعٍ والناسُ تحتَه، فيتشبَّهُ بالواعِظ والخطيب، يتلو كلامَ الحبيبِ، ثمَّ يأخُذُ في مدِّ صوتِه وهَزِّ رأسِه بقوله: أيُّها الناسُ، وهم تحتَهُ يتضاحكونَ، كفروا كُلُّهم أجمعون! وكذلك المُدبِرُ[2] الذي يُصَلِّي تحتَ الواعِظِ على البشيرِ النذيرِ، الكلُّ قد سقَطوا من عينِ الملكِ القَدير، وتجهَّزوا بهذا الزاد لجهنَّمَ وبئسَ المصير!

قال رجلٌ لبعض الفُقهاء: إنَّ الملائكةَ لَتَضعُ أجنحَتَها رضىً لطالبِ العِلم، فقالَ الفقيهُ وهو مازح: لأجل ذلك سمَّرتُ قبقابي لكسرِ أجنِحَتِهم، فما كانَ إلا قليلاً حتَّى وقعَ في تُهمة فقُطعت فيها رجلاه.

ومن البدَعِ التي تُكرَهُ أن يكذبَ الرجلُ في مَزْحِهِ ليُضحِكَ القومَ ومَن حضرَ...فالويلُ ثمَّ الويلُ لهذا كما صحَّ في الخبر، واعلمْ أنَّ ويلاً وادٍ في جهنَّم، وكذلك سقر[3]، وإذا رجع العبد إلى الله تعالى بالتوبة تابَ اللهُ عليه وغفَر، وإذا تكلَّم الرجلُ بكلمة الكفر عليه أن يُجَدِّدَ التوبة على الفَور ثمَّ يأتي بالشهادتين

(١) من علماء الحنفية في القرن السابع.

(٢) المدبر: عكس المقبل، ولعلَّه يريدُ به العاصي، المدبر عن الطاعة.

(٣) معنى "ويل" و "سقر" بما ذكر ليس موضع اتفاق.

ولا يزالُ نادماً إلى أن يلقى الله تعالى، فحينئذٍ يُرجى له الخيرُ والفَلاحُ، ويُحشَرُ مع أهلِ الدينِ والصلاح.

قرأَ رجُلٌ من أهلِ العِراق آيةَ (إنَّ لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصَّة وعذاباً أليماً) فقال بعض المفتونين مازحاً: "واللهِ ما هذا إلا كرَمٌ عظيم"، فأمرَ إمامٌ من الأئمَّةِ بضرْبِ رقَبَتِهِ، فقال الخليفةُ: بأيِّ دليلٍ كفَّرتَ هذا وضرَبتَ رقَبَته؟!

قال: بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴾.

وشفَعَ بعضُ النُّدولِ لفقيهٍ عندَ القاضي بَكَّار، وقال: يا مَولانا أنتَ تعلَمُ أنَّ الفقيهَ هو سَيِّدٌ فاضِلٌ راسِخٌ في العلومِ، فيشتَهي أن تُعَدِّلَهُ، فأبى القاضي وقال: حضَرنا يوماً في مكانٍ وبينَ أيدينا قَصعَةُ طعامٍ في وسَطِها سَمنٌ، فطرَّقَ بعضُ الحاضرين للسَّمنِ طريقاً ليأتيَ إليه، فقال هذا الفقيهُ وهو يمزَحُ: (أخرَقتَها لتُغرِقَ أهلَها) فسقَطَ من عيني.

فهذه الأشياءُ وأمثالُها يتداولُها الجُهَّال بينَهم، فتارةً يكفرُ القائلُ، وتارةً يفسُقُ، ويحسبُ هذا اللئيمُ أنَّهُ هيِّنٌ وهو عندَ اللهِ عظيمٌ، فنَرى بعضَهم يقول ــ إمَّا في مَزحِهِ أو غضَبِهِ ــ: لو جاءَ جبريلُ أو النبيُّ الكريمُ عليهما الصلاةُ والتسليمُ لم يفعَل أو يفعَل! أو كقول الجاهِلِ المُرتابِ لغيره: إذا دخلتَ الجَنَّةَ فرُدَّ

البابَ ! وكذلك جوابُ الجاهل لمن يأمرُ بالخير والمعروف ليقرِّبَهُ للربِّ الرؤوف، فيقول للآمِر: "قتلتَنا بدينك، كلُّ شاةٍ معلَّقَةٌ بعُرقوبها"، ثمَّ يستَدِلُّ هذا المخذولُ الخارجُ عن طريقِ الرسولِ بقوله تعالى: (عليكم أنفسكم) فلم يفهَمْ معنى الآية، وتفسيرُها بعكس ما يقول.

ثمَّ قالَ بعدَها:

ومثلُ هذا كثيرٌ يتداولُه الفَسَقةُ بينَهم حينَ يمزَحونَ ومن الدين يمرُقون، وعن طريقِ نبيِّهم يخرجون، ومن عينِ مليكِهم يَسقُطون، (قاتلَهم اللهُ أنَّى يؤفكون)!

وقد قلتُ بعضَ ما يقولونَ حاكياً لأجلِ النُّصح، لا مازحاً ولا معتقداً، وليعلمَ الفاعلُ كذلك أنَّه مرَقَ من الدين، وخرج عن طريق سيِّدِ المرسلين، وحاكي الكفر ليس بكافر، فلا يحِلُّ لمسلمٍ أن يمزحَ بشيءٍ من كتاب الله تعالى، ولا بشيءٍ من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ، كقول بعض من خذَلَه اللهُ في مزحِه بالحديث: "أنَّ مغربياً رمَدَتْ عينُه فتذكَّرَ الحديثَ المَروِيَّ: (شفاءُ أمَّتي في ثلاثٍ: آيةٍ من كتاب الله، أو لعقَةٍ من عسَلٍ، أو مِشرَطٍ من حجَّام)[1] فقرأَ المَغربيُّ آيةً فلَم تَبرأ عينُه، ولعقَ العسَلَ فلم يصِحَّ، فشَرَطَها فورَمَتْ! فعندَ ذلك قال: يا حبيبي يا رسولَ الله، إذا لم تكُن تعرف الطِبَّ فلِمَ تتكلَّمُ فيه؟!!"

---

(١) لا نعلم حديثا بهذا اللفظ، وإن كانت المعاني التي يشتملها صحيحة، ولكن المعروف في الباب الحديث الذي رواه البخاري وغيره، عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: (الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهى أمتي عن الكي).

فانظُر إلى هؤلاء المفتونين كيف يرمون نبيَّهُم بالجهلِ حينَ يمزَحون !![1]

وهذا بعضُ ما يمزحون به من أنواعِ الخِزي، ولا يفعلُه إلا كلُّ عبدٍ مَطرودٍ، وشؤمُ ذلك عليه يعودُ، لتشبُّهِه بالكافرِ المبعودِ، فلا ينبغي لمؤمنٍ أن يمزَحَ بشيءٍ يُسخِطُ ربَّهُ، ويخالِفُ أوامِرَهُ، فيُضحِكُ القومَ، ويبكي هو في الآخرة، يا مَن يشُقُّ عليه أن يفعل شيئاً يصيرُ به مضحَكَةً بين أبناءِ جِنسِه، ولا يشقُّ عليه وقد صارَ مضحكةً للشيطان]. انتهى بتصرف(٢).

وقال الإمامُ بدرُ الرشيدُ الحنفيُّ رحمه الله:

[من استعمَلَ كلامَ الله تعالى بدلَ كلامِه، كمَن قال في ازدحامِ الناس:(فجمعناهم جمعاً) كَفَر][3]

وقال: [من قالَ لآخرَ: "جعَلَ بيتَهُ مِثلَ السماءِ والطارِق" يكفرُ، لأنَّهُ يلعَبُ بالقُرآن !!][4]

وقال: [ومَن قالَ : "سَلَخْتَ، أو سلَخَ سورَةَ الإخلاص"[5]، ولو قال:"فلانٌ أقصَرُ مِن سورَةِ إنَّا أعطيناكَ الكَوثَرَ" كفرَ][6]

---

(١) المقصودون هم اللذين يتناقلون مثل هذه الأخبار في مجالسهم وتسامرهم.

(٢) اللمع في الحوادث والبدع (١٧٨/١) وما بعدها.

(٣) رسالة في ألفاظ الكفر: ص٦٦.

(٤) المصدر السابق : ص٦٧.

(٥) المصدر السابق : ص٧١.

(٦) المصدر السابق : ص٧٣.

صورٌ من زَلاَّت الصالحين في الاستهزاء من واقعنا المعاصر

وهذا بعضُ ما جمعتُه من حوادِثَ وقعَتْ أمامي، أو حدَّثني بها مَن أثِقُ به، تلمَسُ فيها استخفافَ القومِ بالقُرآن وأمورِ الدين، وتجدُ ظهورَ السُّخريَةِ على ألسِنَتِهِم من غيرِ وَجَلٍ أو خجَلٍ، وتتألَّمُ حين ترى مِن هؤلاءِ المُستهزئين القُرَّاءَ والحُفَّاظَ وطلَبَةَ العِلم، فبدَلَ أن يُكرِموا الآياتِ ويُراعوا حقَّها وقدرَها راحوا يَلوكونَها بألسنَتِهم، ويَضحَكونَ ويُضحِكونَ عليها!!

ولولا رُجحان المصلَحَةِ في ذكرِها كأمثلَةٍ يُقاسُ عليها، لامتنَعتُ عن ذكرها أشدَّ الامتناع، ولنَزَّهتُ قلَمي عن أن يخُطَّها، وكما قيل: بالمثال يتَّضِحُ المَقال.

وجميعُ هؤلاءِ إذا ما أُنكِرَ عليهم يقولون: (..إنَّما كنا نخوضُ ونلعَب) فمن هذه الأمثلة:

- اجتَمَعَ بعضُ الشبابِ في دارِ أَحَدِ الإخوَة، إجابةً لدعوته لهم بالإفطار في أحدِ أيامِ رمَضان، وبعدَ أن أحضَرَ الطعامَ نسيَ إحضارَ الخُبزِ، فقالَ أحدُ المدعوِّين: "(ما ليَ لا أرى الخبزَ أم كان من الغائبين؟!) فأجابَه صاحبُ الدعوة: (سآتيك به قبلَ أن تقومَ من مَقامك وإنِّي عليه لقَويٌّ أمينٌ) ثمَّ قالَ ثالثٌ: وماذا نفعَلُ بالخُبز (ولكم في العَدسِ أسوةٌ حَسَنَة)!

فضَحِكَ الجميعُ، وقهقَهوا وارتَفَعَت أصواتُهم، وكان بعضُهم يحفَظُ القُرآن!!

- سألَ أحدُهم صاحبَه أن يشرَحَ له أجزاءَ أحَدِ الأجهزةِ فقال له: أيُّ جُزءٍ تُريدُ أن أشرَحَ لك؟ فقالَ ثالثٌ: (اشرحْ له جُزءَ عَمَّ)!!
- وضعَ أحدُهم المائدةَ وعليها إبريقُ الشاي، وبعضُ الفناجين من نفسِ الطراز، فقال صاحبه: (إبريقُكَ هذا أصابَهُ الكِبَرُ ولهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاء)!!
- انتهينا من طعام الغَداء، فقالَ أحدُهم: (أفطَرَ عندَكم الصائمون وأكلَ طعامَكم الأبرارُ، وصَلَّت عليكم الملائكةُ إلا جبريل)! قالوا له: ولِمَ ؟

قال: (إنَّه ينتظرُ مجيءَ الشاي)!!

- في الطريق ذكرَ أحدُهم أنَّهُ مُحتَقِنٌ يُريدُ أن يتَبَوَّل، فاستأذنَهم بالذهاب إلى مكانٍ قريبٍ، فقالَ له آخَرُ: وأنا كذلك، فقال الأوَّلُ: (إذن هيا بنا نبولُ جماعةً) !!
- المدعوُّون منشَغِلون في تناولِ الطعام، وأحَدُ الجالسين في طَرفِ السُفرَةِ ينادي صاحبَه في الطرف الآخر مِراراً وهو لا يسمَع، فقال له أحَدُهم وهو يضحَكُ: لا تُتعِب نفسَكَ (إنَّهم اليومَ في شُغُلٍ فاكهون)
- سمعتُ من أحَدِهم يقولُ لصاحبه: (إذا لم تسكُتْ فسأقرأُ عليك آيةً تَشطُرُك نصفين)!
- مررتُ بحلقَةِ قُرآن ذاتَ يومٍ والقُرَّاءُ يَقرأونَ مِن سورَةِ الكهْفِ بالتوالي، فدخَلَ أحَدُهم البيتَ، وكانت هناكَ مِظَلَّةٌ مسنَدَةٌ إلى الجدار، فقال: لمن هذه المِظلة؟ وكانَ القارئُ يُرَتِّلُ قولَه تعالى: (قالَ إنَّكَ لن تستطيعَ مَعي صَبراً) فوَصَلَ الآيةَ على نَفسِ النَّغمَةِ والترتيلِ بقولِه للأخِ السائلِ: (ليس لك أن تأخُذَها، فإنْ أخذتَها إنَّكَ إذن مِن الظالمين !!) وعبارات أخرى لا

أذكرها!! عامِلاً بأحكامِ التجويدِ والتلاوَةِ !

- كنَّا في سفَرٍ فجَمَعْنا الظهرَ معَ العصرِ جَمعَ تأخيرٍ، ولم نتَناول طعامَ الغَداءِ حتَّى وقتٍ متأخِّر، فقالَ أحدُهم: " يا جماعَة، انووا جَمْعَ الغداءِ مَع العَشاءِ جَمْعَ تأخير!!
- قولُهم عن الشخص الأكول: (فلانٌ مثلُ عَصا موسى تلقَفُ ما يأفكون)
- يقولُ أحَدُهم: لا أستطيعُ أن أفعَلَ ذلك لأنِّي قد حلَفتُ يميناً.

  ـ الآخر: لا، أنا سمعتُكَ وأنتَ تحلِف، إنَّكَ لم تَحلِفْ يميناً بل شِمالاً !!
- قلتُ لأَحَدِهم: مَن بَقيَ في الحيِّ مِن إخوانِنا الذين نعرِفُهم؟

  فقال: لقد سافَرَ الجميعُ ولم يبقَ إلا فلانٌ، وحدَهُ لا شريكَ له!!
- بعد الامتحان، قيلَ له: اليومَ آخرُ امتحان، فهو عندَكَ عيدٌ.

  قال: لا، بل ما زلتُ مُحرِماً لَم أتحلَّلْ بعدُ، لأنَّه بقيَ لي امتحانٌ آخر، اليومَ عندي هو يومُ عرَفَة !!
- أحدُهم يكنِسُ الأرضَ، والآخرُ ينظرُ إلى الأرضِ ويُخاطبُ سِرباً من النملِ قائلاً:

  "يا أيُّها النملُ ادخلوا مساكنَكم لا يَكنِسَنَّكُم (فلان) والذين معَهُ وهم لا يشعُرون" !!
- في محاضَرَةٍ في المسجدِ حضَرَها أعدادٌ غفيرةٌ من الناس، يسألُ أحدُ الشبابِ عن معصيةٍ ارتكبَها ولا يستطيعُ تركَها، ماذا يصنَعُ؟!

  فأجابَهُ الشيخُ (المعروفُ بتساهُله المُفرِط): "لا عليك يا بُنيَّ، فالأمرُ هيِّنٌ، وغايةُ ما ينالُكَ منَ الله يومَ القيامَةِ صَفعةٌ وركلةٌ، ثمَّ يُدخِلُكَ الجنَّة" !!

- رأى الشيخُ بعضَ طلاَّبه قد نامَ أثناءَ إلقائه المُحاضرَةَ، فقال: " منهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتَظِر" !!
- نشرَ أحدُهم في موقِع (فيس بوك):

"إنَّ الذينَ خَنَعوا سواءٌ عليهم أحَفَزتَهم أم لم تَحفِزْهُم لا يَخرُجون، يُخادِعونَ الناسَ والذين تَحَرَّروا وما يُخادِعون إلا أنفُسَهم وما يشعُرون، وإذا قيلَ لهم لا تَدعَموا المُفسِدين في الأرضِ قالوا إنَّما نحنُ الديمقراطيون، ألا إنَّهم هم الطُغاةُ ولكن لا يشعُرون".!!

- يقرأُ أحدُهُم قولَهُ تعالى: (في بيوت أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ) بضَمٍّ (التاء) في (بيوت) يفعَلُ ذلكَ عامِداً قاصِداً ! فيقالُ له: إنَّ حقَّها الجرُّ لا الرفعُ، فلِمَ رفعتها؟! فيجيبُهم:

لقد أذِنَ الله أن تُرفَعَ !!

هذه بعضُ الأمثلةِ الواقعةِ والمنتشرَة، لا أقولُ لدى مَن أظهَرَ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيان، بل لدى من يحسَبون أنَّهُم على شيءٍ، وأنَّهم حُماةُ الدينِ، وأنَّهُم أهلُ التقوى والصلاح، وما ذكرتُهُ ما هو إلا نَبذَةٌ يسيرةٌ مما في جُعبتي من تلك الوقائع والمَهازل، ولو رُحتُ أُحصي كلَّ ما سمعتُ لَطالَ بِنا المُقام، ولو أنَّنا قارنا المقالاتِ المتقدِّمَةَ مع ما قالَه منافقو تبوك، لوجَدنا أنَّ منها ما يوازيه في السوءِ، ورُبَّما تفوَّقَ عليه، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله.

قال القاضي عياض رحمه الله:

[وإنَّما أكثَرْنا شاهِدَنا مع استثقالنا حكايتَها لتَعريفِ أمثِلَتِها، ولتساهُل كثيرٍ من الناس في ولوج هذا الباب الضَنِك، واستخفافِهم فادِحَ هذا العِبءِ

وقِلَّةِ علمِهم بعظيمِ ما فيه من الوزر، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم][1].

وقال الشيخُ عبدُ اللطيف بنُ عبدِ الرَّحمن آل الشيخ:

[من الأسبابِ المانِعَةِ عن فَهم كتاب الله أنَّهم ظنُّوا أنَّ ما حَكاهُ اللهُ عن المشركين، وما حَكَمَ عليهم ووصَفَهم به، خاصٌّ بقومٍ مَضَوا، وأُناسٍ سَلَفوا وانقَرَضوا، ولم يعقُبوا وارِثاً، ورُبَّما سَمِعَ بعضَهم قولَ مَن يقولُ من المفسِّرين: هذه نزَلَت في عُبَّادِ الأَصنام، هذه في النصارى، هذه في الصابئة، فيظنُّ الغَمْرُ أنَّ ذلك مختصٌّ بهم، وأنَّ الحكمَ لا يتعدَّاهم، وهذا من أكبر الأسباب التي تحولُ بينَ العَبدِ وبَينَ فَهم القُرآن والسُّنَّة][2].

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢٤٠).

(٢) تحفة الطالب والجليس، ص ٥٩ ـ ٦٠.

أقوالُ العلماء واتفاقهم على أنّ الاستهزاء بالدين كفر

من خِلالِ تَتبُّعِ أقوالِ العُلماءِ في كُفر المُستَهزِئ نَجِدُ أنَّهُم تكَلَّموا عن ثلاثِ صوَر وهي؛

الأولى: أن يَستَهزِئَ المرءُ بالرِدَّة، كأن يُقالَ لأَحَدِهِم: ألا تتَّقيَ اللهَ! أوَلَستَ بمسلمٍ ؟! فيقولُ: لا أنا يهوديٌّ أو نَصرانيٌّ ! وهو في الحقيقَة لا يَعتقِدُ عقيدَةَ اليهود ولا النصارى، ولا يُريدُ في الحقيقَةِ التحوُّلَ إلى دينِهم، وإنَّما قال ذلك هازلاً، والهزلُ في الردَّة ردَّةٌ عند العلماءِ قاطبةً بلا مخالف !

الثانية: أن يتكلَّمَ بِكَلِمةِ الكُفرِ هازلاً، غيرَ مُريدٍ للكفرِ أو قاصِدٍ له، أو مُعتَقِدٍ لمعناهُ، وإنَّما قالَ ما قالَ لأَجلِ الضَحِكِ وحَسْب، كأن يقول: "هل أنتم مجانين ؟! تُصدِّقون أنَّ هناكَ جنَّةً وناراً ؟!!"

أو يقولُ قائلٌ: "شأنُكم عجيبٌ أيُّها المُسلمون، دينُكم كلُّه إرهابٌ، وسفكٌ للدِّماءِ، فمن دخَلَ فيه قطعتُم ذكَرَه، ومن رجَعَ عنه قطعتُم رأسَه"!!

الثالثة: أن يتكلَّمَ بكلامٍ في الدين ممَّا هو مَوضِعُ تعظيمٍ، كآياتِ الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، ورسوله، وملائكته، وأخبارِ الآخِرَةِ، ونحو ذلك، فيُخرجُهُ مَخرَجَ اللَّعِب والهزْل، فيكفرُ بهذا عند عامَّة العلماء، لنصِّ القُرآن عليه، لأنَّه مُستخِفٌّ بالمُعظَّمات والمقدَّسات التي لا يصحُّ الإيمانُ إلا بتعظيمها، وحيثُما غابَ الإيمانُ حضرَ الكفرُ ولا بُدَّ.

هذه الصُّوَرُ الثلاثُ هي التي ستَتَضَمَّنَهُما كلُّ أقوال العلماء التي سأنقلُها لاحِقاً، فاقتضى التنويهَ إليها، وتوضيحَ أنَّها جميعاً عندَهُم من الكفر الأكبر الناقل عن المِلَّة، بلا تفريقَ بينها.

عند الحنفيَّة :

جاءَ في يتيمَةِ الفتاوى:

[مَن استَخَفَّ بالقُرآنِ أو بالمسجدِ أو نحوه مما يُعَظَّمُ في الشَّرعِ كَفَرا](1)

وفي الفتاوى الظهيرية :

[من قرأ آيةً من القُرآن على وَجه الهَزْل كفَر](2)

وفي الفتاوى البزَّازية :

[إدخالُ القُرآن في المِزاحِ، والدُّعابَةِ كُفْرٌ، لأنَّه استِخفافٌ به] (3).

وقال صدِّيقُ حَسَن خان القنوجيُّ رحمه الله:

[من ذلك الهَزْلُ بشيءٍ فيه ذكرُ الله، أو الرسول، أو القُرآن، أو السُّنَّة، وهذا الهزلُ كفرٌ بواحٌ] (4).

(١) (رسالة في ألفاظ الكفر) لمحمد بن إسماعيل الرشيد الحنفيِّ، ص٢٢.

(٢) شرح الفقه الأكبر: ص ١٣٩.

(٣) الفتاوى البزازية (٣ / ٣٣٨).

(٤) الدين الخالص (٤/٥٤٦).

المالكية:

قال القاضي عياض رحمه الله:

[اعلم أنَّ من استَخَفَّ بالقُرآنِ أو المصحَفِ أو بشيءٍ منه، أو سبَّهما، أو جحدَه، أو حرفاً منه أو آيةً، أو كذَّب به أو بشيءٍ منه، أو بشيءٍ مما صرَّح به فيه من حُكمٍ أو خَبَرٍ، أو أثبَتَ ما نفاهُ أو نفى ما أثبَتَه، على علمٍ منه بذلك، أو شكَّ في شيءٍ من ذلك، فهو كافرٌ عندَ أهلِ العلم بإجماع][1].

وقال: [الكتابُ والسنَّةُ موجِبان أنَّ مَن قَصَدَ النبيَّ ﷺ بأذىً أو نقص، مُعَرِّضاً أو مصرِّحاً، وإن قلَّ، فقتلُهُ واجِبٌ، فهذا البابُ كلُّه مما عدَّهُ العلماءُ سَبًّا أو تنقُّصاً يجِبُ قتلُ قائِلِه، لم يختلف في ذلك مُتَقَدِّمُهم ولا مُتأخِّرُهم][2].

الشافعية:

قال الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله:

[...من ذكَرَ كتابَ الله، أو محمَّداً رسولَ الله ﷺ، أو دينَ الله بما لا ينبغي....فقد نقَضَ عهدَه، وأحلَّ دمَه، وبَرِئَت منه ذِمَّةُ الله تعالى وذمَّةُ رسول الله ﷺ][3].

(١) الشفا (١١٠١/٢).

(٢) الشفا (٩٤٢/٢).

(٣) "مختصر أخلاق العلماء" للجصاص (٥٠٥/٣).

وذكَرَ الإمامُ النوويُّ رحمه الله:

[أنَّ مَنْ جَحَدَ آيةً من القُرآن على وجهِ الهَزل يكفُرُ][1].

قال الرافعيُّ رحمه الله وهو يتكلَّمُ عن الردَّةِ بِمَ تكون:

[تحصلُ الردَّةُ بالقول الذي هو كفرٌ، سواءٌ صدَرَ عن اعتقادٍ أو عنادٍ أو استهزاءٍ ....أو سبَّ نبياً من الأنبياء عليهم السلام، أو استَخَفَّ به، أو استَحَلَّ مُحَرَّماً بالإجماع][2].

[ومن استخفَّ بالإسلام كفَرَ وإن لم يتلفَّظ، ويكونُ بالفِعل أيضاً، إذا دلَّ على الاستخفاف دلالةً ظاهرةً، كما إذا ألقى المصحفَ في القاذورات اختياراً، فإنَّا نَحكُمُ بكفرِه، وإن أنكَرَ الاستخفافَ، لأنَّ الظاهِرَ من حالِه يُكذِّبه في إنكاره][3].

الحنابلة:

قال الإمامُ ابنُ قدامةَ المقدسيُّ رحمه الله:

[من سبَّ الله تعالى كفَر، سواء كان مازحاً أو جاداً، وكذلك من استهزأ

(١) روضة الطالبين (١٠/ ٦٤).
(٢) الشرح الكبير (١١/٩٧).
(٣) إخلاص الناوي (٤/١٣٣).

بالله تعالى أو بآياته أو برسُلِهِ أو كُتُبه][1].

وقال شرفُ الدين الحجَّاويُّ رحمه الله:

[...أو سبَّ اللهَ أو رسولَهُ أو استهزأَ بالله أو كتُبِهِ أو رُسُلِهِ ....أو أتى بقولٍ أو فعلٍ صريحٍ في الاستهزاءِ بالدين.....كَفَر][2].

قَال في "المُغني والشَّرح":

[ولا ينبغي أَنْ يُكتَفى في الهازئ بذلك بمُجَرَّدِ الإسلامِ حتَّى يُؤَدَّبَ أَدَباً يَزْجُرُهُ عن ذلك لأنَّهُ إذا لم يُكْتَفَ مِمَّن سَبَّ رسولَ الله ﷺ بِالتَّوبةِ فهذا أَوْلى...... (أَو أَتى بقولٍ أو فعلٍ صَريحٍ في الاستهزاءِ بالدِّين) الَّذي شرَعَهُ اللهُ، كفرَ لِلآيةِ السَّابقَة (أَو وُجِدَ مِنهُ امتِهانٌ لِلقُرآن أو طَلَبُ تناقُضِه أو دعوَى أنه مُختَلفٌ أو) أَنَّهُ (مُخْتَلِفٌ أَو مقدُورٌ عَلى مثله أو إسقاط لحُرمَتِهِ) كفرَ، لقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ....][3]

الظاهرية:

قالَ ابنُ حَزم:

[فنصَّ تعالى على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ تعالى أو بآياتِهِ أو برسولٍ من رسُلِهِ

---

(١) المغني (٢٩٧/١٢ ـ ٢٩٩).

(٢) الإقناع (٢٩٧/٤)، الفروع (١٦٥/٦).

(٣) المصدر السابق (٢١/ ٩٥).

كُفرٌ مُخرِجٌ عن الإيمان، ولم يقُل تعالى في ذلك إنِّي علِمتُ أنَّ في قلوبكم كُفراً، بل جَعَلَهم كفَّاراً بنفسِ الاستهزاء، ومن ادَّعى غيرَ هذا فقد قوَّلَ اللهَ تعالى ما لَم يَقُلْ، وكذَبَ على الله تعالى][1].

وقال:

[إنَّ الإيمانَ بالكُتُب المُنَزَّلَة يتضمَّنُ وجوبَ تَعظيمِها وإجلالِها وإكرامِها، وإنَّ الاستهزاءَ بها لا يجتمعُ مع هذا التعظيمِ والإجلال، فهو مناقضٌ لعَمَلِ القلبِ، كما أنَّه يُناقِضُ الإيمانَ الظاهِرَ باللسان][2].

من العلماء المعاصرين:

- **الشيخ عبد العزيز بن باز** رحمه الله:

[الاستهزاءُ بالإسلام أو بشيءٍ منه كفرٌ أكبَرُ............ ومن يستهزئُ بأَهلِ الدينِ والمُحافظينَ على الصلواتِ من أَجلِ دينِهم ومحافظتهم عليه، يُعتَبَرُ مُستَهزِئاً بالدين، فلا تجوزُ مُجالستُه ولا مصاحبَتُه، بل يجبُ الإنكارُ عليه والتحذيرُ منه، ومن صُحبته، وهكذا من يخوضُ في مسائلِ الدين بالسخريةِ والاستهزاءِ يُعتَبَرُ كافراً][3].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١١٤).

(٢) المحلى لابن حزم (١٣/ ٥٠٠).

(٣) مجلة الدعوة عدد: ٩٧٨.

○ الشيخ صالح الفوزان:

[ففي هاتين الآيتين الكريمتين مع بيان سببِ نُزولِهما دليلٌ واضِحٌ على كُفـرِ من استهزأَ بالله، أو رسولِه، أو آياتِ الله، أو سنَّةِ رسولِه، أو بِصحابَةِ رَسولِ الله لأنَّ مَن فعلَ ذلك فهو مُستَخِفٌّ بالربوبيـة والرسـالة، وذلـك منـافٍ للتوحيـدِ والعقيدةِ، ولو لم يقصِدْ حقيقةَ الاستهزاء، ومن هـذا البـاب الاسـتهزاءُ بـالعلمِ وأهلِه، وعدَمُ احترامِهم أو الوقيعة فيهم من أجلِ العلمِ الذي يحملونه.

وكونُ ذلك كفراً ولو لم يقصِدْ حقيقةَ الاستهزاء، لأنَّ هؤلاء الذين نزَلَتْ فيهم الآياتُ جاؤوا معترِفينَ بما صدَرَ منهم، ومعترفين بقولهم: (إنما كنا نخوض ونلعب) أي لم نقصِدْ الاستهزاءَ والتكذيبَ، وإنَّما قصَدْنا اللَّعِب، واللَّعِب ضدُّ الجَدِّ، فأخبَرَهم اللهُ على لسان رسولِه ﷺ أنَّ عُذرَهم هذا لا يُغني مِنَ الله شيئاً، وأنَّهم كفروا بعدَ إيمانِهم بهذِهِ المَقالة التي استهزَأوا بها، ولم يَقبلْ اعتذارَهم بأنَّهم لم يكونوا جادِّين في قولِهم وإنَّما قصدوا اللَّعِب، ولم يَزِدْ ﷺ في إجابَتِهم على تلاوةِ قولِ الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ لأنَّ هذا لا يدخُلُه المَزْحُ واللَّعِب، وإنَّما الواجبُ أن تُحترَمَ هذه الأشياءُ وتُعَظَّمُ، وليُخشَع عندَ آياتِ اللهِ إيماناً بالله ورسولِه وتعظيماً لآياته، والخائِضُ واللاعِبُ مُنتَقِص لها][1].

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: ص(٨٠ ـ ٨١).

وقد سُئِلَ الشيخُ ابنُ العُثيمين رحمه الله السؤال الآتي:

ما حُكمُ من يستعملُ ألفاظاً غيرَ لائِقَةٍ في القُرآن، أو عباراتٍ أو جُمَلاً، وهذا من باب المِزاح، كذِكرِ كلمةٍ من القُرآن ورَبطِها بكَلِمَةٍ عامِّيةٍ، فما رأيُكم فيمن يفعلُ ذلك مأجورين؟

فأجاب:

[الكفرُ لا فرقَ فيه بينَ المازحِ والجادِّ، فمتى أتى الإنسانُ بما يوجِبُ الكفرَ فهوَ كافرٌ والعِياذُ بالله، ومن أعظَم ذلك، أن يأتيَ بشيءٍ يفيدُ السُّخريَةَ بالقُرآن أو الاستهزاءِ بالقُرآن، فإنَّ هذا كفرٌ نَسألُ اللهَ العافيَةَ، ...فمن أتى بكلمَةِ الكفرِ فهوَ كافرٌ، سواءٌ أتى بها جاداً أم لاعباً مازحاً، أم غيرَ مازِحٍ، فعلى من فعل ذلك أن يتوب لله عزَّ وجلَّ وأن يعتبرَ نفسَهُ داخِلاً في دين الإسلام بعدَ أن خرَجَ منه.

وأمَّا السخريةُ بالقُرآن وربطُ الكلمات القُرآنيةِ وهي كلامُ ربِّ العالمين، - بكلامٍ عامِّيٍ -"مَسخَرَة"، فهذا أمرٌ خطيرٌ جدًّا نسألُ اللهَ العافيةَ، قد يخرُجُ به الإنسانُ من الإسلام وهو لا يَشعُرُ][1].

(١) فتاوى نور على الدرب - لابن عثيمين (١٤/ ٣١).

الاستهزاء بالدين من نواقض الإيمان المتفق عليها

قال الإمامُ محمَّدُ بنُ عبد الوهَّاب رحمه الله:

[الناقضُ السادس: من استهزأَ بشيءٍ ممَّا جاءَ به الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام، أو ثوابِه أو عِقابِه فإنَّه يكفُرُ][1].

وقال الإمامُ ابنُ تيمية رحمه الله:

[ولم يقل قد كذبتُم في قولكم: إنَّما كنا نخوضُ ونلعبُ، فلم يُكذِّبْهُم في هذا العُذرِ كما كذَّبَهم في سائرِ ما أظهروهُ من العُذرِ الذي يوجِبُ بَراءَتَهُم من الكفرِ كما لو كانوا صادقين، بل بيَّنَ أنَّهم كفروا بعد إيمانهم بهذا الخَوضِ واللَّعِب][2].

وقال سليمانُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ بنِ عبدِ الوَهَّاب رحمهُما الله:

[وفي هذا الحديث من الفوائد أنَّ الإنسانَ قد يكفُرُ بكلمَةٍ يَتَكلَّمُ بها أو عملٍ يعملُ به، وأشدُّها خطراً إراداتُ القلوبِ، فهي كالبحرِ الذي لا ساحِلَ له، ويُفيدُ الخَوفَ من النفاقِ الأكبر، فإنَّ الله تعالى أثبَتَ لهؤلاءِ إيماناً قبلَ أن يقولوا ما قالوه][3].

---

(١) فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد، بتحقيق الأرناؤوط طبعة دار البيان ص ٥٢٠.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول : ص ٥٢٤.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: ص ٥٥٩.

تأصيل المسألة

لنبدأ بتقسيماتِ الأصوليين لتَصرّفاتِ الهازلِ وما يترتَّبُ عليها من أحكام:

قال الدكتور عبدُ الكريم زَيدان:

[الهَزْلُ: أن يُراد بالشيءِ ما لم يوضَع لـه، والتصـرُّفاتِ القوليـةَ الـتي تقـترنُ بالهزلِ ثلاثةُ أقسام، هي:

الإخبارات، والاعتقادات، والإنشاءات، ولكلِّ قِسمٍ حُكمٌ يخُصُّه:

الاعتقادات:

وهي الأقوالُ الدالَّةُ على عقيدَةِ الإنسان، والهزلُ لا يمنَعُ أَثَرَهـا، ولهـذا لـو تكلَّمَ بكلمَةِ الكُفر هازلاً صارَ مرتداً عن الإسلام، وإنَّما كانَ الحُكـمُ هكـذا وإن كانَ الهازلُ لا يقصِدُ الردَّةَ ولا يُريدُها، لأنَّ التكلُّمَ بكلمةِ الكفر هَزلاً استخفافٌ بالإسلام، والاستخفافُ به كفرٌ، فصارَ الناطِقُ بكلمةِ الكفر مرتداً بنفس الهـزلِ وإن لم يقصِد حكمَهُ، قال تعالى: ﴿ وَلَـئِن سَـأَلْتَهُمْ ....الآية﴾...][1]

أمَّا تأصيلُ المسألةِ عَقَدياً؛ فيكونُ أولاً بمعرفة **حقيقَةِ الإيمان** وماهيَّتِه، فأقولُ وبالله التوفيق:

إنَّ الإيمانَ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ له حقيقةٌ مركَّبَةٌ من باطِنٍ وظاهِرٍ، أمَّـا الباطنُ فله جانبان:

---

(١) الوجيز في أصول الفقه، ص: (١١٦ـ١١٨).

الأول: جانبُ تصديق الأَخبار الآتيةِ عن طريق الـوَحي، وقَبولها بالتسـليم المطلق، من غير شكٍّ ولا ريب، واصطلحوا عليه بـالاعتقاد.

والجانب الثاني: هو جانبُ أعمالِ القَلب المصدِّق المـؤمِن بالغيـب، وهـي لازمةٌ له لا تنفكُّ عنه، وهي المحبَّةُ، والتعظيمُ، والخَشيةُ، والصدقُ، والإخلاصُ، والإنابَةُ، ونحو ذلك.

وأمَّا الظاهرُ من الإيمان، فلهُ جانبان كذلك، وهما:

قـولُ اللسـان: وهـو الإقـرارُ بمعتقَـدِه وإعـلانُ ذلـك، وعَـدَمُ كتمانِـهِ مـع الاستطاعة، ويتمثَّلُ ذلك بالنُطقِ بالشهادتين، فبه يُعصَمُ دمُهُ ومالُه، ويُسَـجَّل في ديوانِ أهلِ الإسلام.

والجانبُ الثاني من الإيمان الظاهر: هـو ظهـورُ أَثـرِ الاعتقـادِ القلـبيِّ علـى جوارحِه وأَعمالِهِ ولا بُدَّ، ولو في الحدِّ الأَدنى، وهذه الأعمالُ هي دليـلُ الانقيـادِ والخُضوعِ والتسليم، فلو أَنَّه أَظهرَ قَبولَه بالإسلام، وامتَنَعَ مع ذلك عن الانقيادِ الظاهِر، فهو مُتَوَلٍّ عن الطاعَة، وامتناعُ الظاهِرِ دليلٌ علـى امتنـاعِ القلـب، لأنَّ الباطِنَ والظاهرَ متلازمـان لا ينفكَّـان، قـال رسـولُ الله ﷺ: **(ألا وإنَّ في الجسـد مضغة إذا صلَحَت صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسَـد الجسَـدُ كلُّـه، ألا وهـي القلب)**[1].

ودليلُنا على كُفرِ المتنِعِ عـن الطاعـةِ، قولُـهُ تعـالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النـــور:٤٧]،

---

(١) رواه مسلم: ١٥٩٩.

فنفى اللهُ سبحانه الإيمانَ عمَّن تولَّى عن الطاعَةِ بالجُملة.

ومذهَبُ جماهيرِ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعة، وسائرِ سلَفِ هذه الأُمَّـة، أنَّ الإيمـانَ يزولُ بزوالِ واحدٍ مـن هـذه الأمـورِ الأَربعَـةِ بالكُلِّيـة، وأنَّـه يزيـدُ بالطاعـات، وينقُصُ بالمعاصي، وأنَّه قد ينقُصُ حتَّى لا يبقى منه شَيءٌ، وأنَّ الإنسانَ لو تـرَكَ جِنسَ العمل مع زعمِه أنَّه مؤمنٌ، لا يُقبَلُ منـه إيمـانٌ ولا إسـلامٌ، علـى فَـرْضِ حصوله، وإلا فهو بعيدُ التصوُّر، كلُّ ذلك بخلافِ ما ذهَبَـتْ إليـه فرقـةُ المرجئَـة الضالَّة، الذين قالوا: إنَّ الإيمانَ هو التصـديقُ والإقـرارُ والمعرفـةُ، وحصَـروهُ في القلب، وبالتالي فلا يكفُرُ أَحَدٌ عندَهم إلا بالجحود القلبيِّ.

وأَهلُ السنَّةِ يعتقِدونَ أنَّ ترْكَ آحادِ العملِ، وارتكابَ الذنوب، دونَ الكُفرِ والشركِ، بشَرطِ عَدَمِ الاستحلال لها، لا يُزيلُ عن المـؤمِنِ اسـمَ الإيمـان بخـلافِ الخَوارج، الذين كفَّروا مرتكِبَ الكبيرة، وحكموا عليه بالخلود الأَبَديِّ في النار.

قال الإمامُ ابنُ قيِّم الجَوزيَّةِ رحمه الله:

[الإيمانُ له ظاهرٌ وباطن، وظاهرُه قـولُ اللسـانِ وعمَـلُ الجـوارح، وباطنُـه تصديقُ القلب وانقيادُه ومحبَّتُه. فلا ينفعُ ظاهرٌ لا باطنَ له، وإن حُقِنَ بـه الـدماءُ وعُصِمَ به المالُ والذُّرِّيةُ، ولا يجزِئُ باطنٌ لا ظاهرَ له إلاّ إذا تعَذَّرَ بعجزٍ أو إكـراهٍ وخوفِ هلاك، فتخلُّفُ العمَلِ ظاهراً مع عدَمِ المـانعِ دليـلٌ علـى فسـادِ البـاطنِ وخلوِّهِ من الإيمان، ونقصُهُ دليلُ نقصِه، وقوتُهُ دليلُ قوَّتِه][1].

(١) الفوائد، ص١٣٧.

وقال أيضاً:

[إنَّ الإيمانَ لا يكفي فيه قولُ اللسان بمُجَرَّدِه، ولا معرفَةُ القلب مع ذلك، بل لا بُدَّ فيه من عمَلِ القَلب، وهو حُبُّه لله ورسوله، وانقيادُه لدينه، والتزامُه طاعته، ومتابعته رسوله، وهذا خلاف من زعم أنَّ الإيمان هو مجرَّد معرفة القلب وإقراره][1].

والذي يعنينا هنا في موضوع الاستهزاء بالدين ما يلي:

إنَّ الاستهزاءَ بالدين ينافي الإيمان ويناقضُهُ أشدَّ المناقَضَةِ، لأنَّ الإنسان لا يكون مُعَظِّماً للشيءِ ومُستَخِفًّا بهِ في آن واحِد، فظُهورُ الاستخفافِ منه يدُلُّ بصورةٍ قاطِعَةٍ على أنَّهُ غيرُ مُعَظِّمٍ لِرَبِّهِ، ولا لكتابهِ، ولا لرُسُلِه، ولا لجميع شعائِر دينِهِ، وهذِه الأمورُ متلازِمَةٌ ومُتَرابِطَةٌ مع بعضِها البعض، كما قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

[فإنَّ الاستهزاءَ بهذه الأُمورِ متلازمٌ، فإنَّ مَن استهزَأَ بآياتِ الله تعالى التي جاءَ بها الرسولُ ﷺ فهو مستهزئٌ بالرسول ﷺ ضرورةً، ومن استهزأَ بالرسول ﷺ، فهو مستهزئٌ برسالته حقيقةً، ومن استهزأَ بآياتِ الله ورسولِه فهو مستهزئٌ به، ومن استهزأَ بالله، فهو مستهزئٌ بآياته ورسوله بطريقِ الأولى][2].

وقد تقدَّم أنَّ أعمالَ القلبِ هيَ من الإيمانِ الواجِبِ، فلا يَصِحُّ الإيمانُ إلا بها، ومنها التعظيمُ والإجلال، وبزوالها يزولُ الإيمان، وبذا يكون المستهزئُ

(١) مفتاح دار السعادة (١/٣٣٠).

(٢) تلخيص الاستغاثة ص (٣٤٦).

كافراً، لأَنَّه لا عمَلَ قلبيًّا لديه.

والله تعالى يقول: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[الأحزاب:٤] أي لو كان له قلبان، لربَّما كان لكلٍّ قلب عملُه الذي يناقِضُ به عملَ القلب الآخر، فيحبُّ بالأول ويبغض بالثاني، ويعظِّم بالأول ويستخفُّ بالثاني !!

أمَّا إذا كان له قلبٌ واحدٌ، وهذا هو واقعُ الحال، فإنَّه يمتَنِعُ اجتماعُ المتناقضاتِ فيه في آنٍ واحد.

ومن ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام:

(لا يجتمعُ الإيمانُ والكفرُ في قلبِ امرئٍ، ولا يجتمعُ الكذبُ والصدقُ جميعاً، ولا تجتمعُ الخيانةُ والأَمانةُ جميعاً)[1].

قال الإمامُ ابنُ حَزمٍ رحمه الله:

[إنَّ الإيمانَ بالكُتُبِ المُنَزَّلَة يتضمَّنُ وجوبَ تَعظيمِها وإجلالِها وإكرامِها، وإنَّ الاستهزاءَ بها لا يجتمعُ مع هذا التعظيمِ والإجلال، فهو مناقضٌ لعَمَلِ القلبِ، كما أنَّه يُناقِضُ الإيمانَ الظاهِرَ باللسان][2].

من هنا نعلمُ أنَّ ما ظهرَ على العبدِ من الاستهزاءِ والاستخفاف وإن كان يسيراً، دلَّ على انتفاءِ التعظيم من قلبه، فلا يكونُ العبدُ معظِّماً للشيءِ ومُستهزئاً به في آنٍ واحد، وإذا انتفى تعظيمُ الله من القلب انتفى الإيمانُ

---

(١) السلسلة الصحيحة: برقم (١٠٥٠)، وقال الألباني: إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٢) المحلى لابن حزم (١٣/ ٥٠٠).

بالكُلِّية لأَنَّه شَرطٌ له، وبهذا يكونُ المستهزئُ كافراً، ولو كان المرءُ معظماً لله تعالى، مؤمناً به حقاً لمَنَعَه إيمانُه وتعظيمُه من أن يستهزئَ بآياته ورسوله ودينه.

قال الإمامُ سفيانُ بنُ عُيَينَة رحمه الله:

[الإيمانُ قولٌ وعملٌ يزيدُ وينقُصُ، فقالَ له أخوهُ إبراهيمُ بن عيينة: يا أبا محمَّد، تقولُ ينقُص؟! فقال: اسكُتْ يا صَبِيُّ، بل ينقُصُ حتَّى لا يَبقى منه شيءٌ][1].

ويقولُ الإمامُ ابنُ تيميةَ رحمه الله:

[فمَن اعتقَدَ الوَحدانيَّةَ في الأُلوهيَّةِ للهِ سُبحانَهُ وتعالى، والرسالةَ لعَبدِهِ ورسولِهِ، ثمَّ لم يُتبِعْ هذا الاعتقادَ موجِبَهُ من الإجلال والإكرام ـ الذي هو حالٌ في القلب يظهرُ أثرُهُ على الجوارح، بل قارَنَهُ الاستخفافُ والتسفيهُ والازدراءُ بالقول أو بالفعل ـ كان وجودُ ذلك الاعتقاد كعَدَمِه وكان ذلك موجِباً لفَسادِ ذلك الاعتقادِ ومُزيلاً لما فيه من المنفَعَةِ والصلاح، إذ الاعتقاداتُ الإيمانيةُ تزكِّي النفوسَ وتُصلِحُها، فمتى لم توجِب زكاةَ النَّفسِ ولا صلاحَها فما ذاكَ إلا لأَنَّها لم ترسَخ في القلب ولم تَصِرْ صفَةً ونَعْتاً للنفس ولا صَلاحاً][2].

وقال:

[ولو أنَّهم هُدوا لِما هُديَ إليه السلفُ الصالح لعلِموا أنَّ الإيمانَ قولٌ وعمَلٌ، أَعني في الأَصلِ قولاً في القلبِ وعَمَلاً في القلب، فإنَّ الإيمانَ بحَسبِ

---

(١) الشريعة للآجرّي (٦٠٧/٢).

(٢) الصارم المسلول، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

كلامِ اللهِ ورسالته وكلامِ اللهِ ورسالتِه يتَضَمَّنُ أخبارَهُ وأوامِرَه، فيصدِّقُ القلبُ أخبارَه تصديقاً يوجِبُ حالاً في القلبِ بحسبِ المصدَّقِ به، والتصديقُ هو من نوعِ العلم والقول، وينقادُ لأَمرِهِ ويستسلم، وهذا الانقيادُ والاستسلامُ هو نوعٌ من الإرادةِ والعَمَل، ولا يكونُ مؤمِناً إلا بمجموعِ الأَمرين، فمتى تركَ الانقيادَ كانَ مُستكبراً، فصارَ من الكافرين، وإذا كانَ مُصدِّقاً فالكفرُ أَعَمُّ من التكذيب، يكون تكذيباً وجهلاً، ويكون استكباراً وظلماً، ولهذا لم يوصَفْ إبليسُ إلا بالكفرِ والاستكبارِ دونَ التكذيب!

ولهذا كان كفرُ مَن يعلمُ مِثلُ اليهودِ ونحوهِم من جِنسِ كُفرِ إبليسَ، وكانَ كفرُ مَن يجهلُ مثلُ النصارى ونحوهِم ضَلالاً وهو الجَهل.

ألا ترى أنَّ نفراً من اليهود جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ وسألوه عن أشياءَ فأخبَرَهم فقالوا: نشهدُ أنَّك نبيٌّ، ولم يتَّبِعوه، وكذلك هِرَقْلُ وغيرُه، فلم ينفعْهُم هذا العلمُ وهذا التصديقُ؟

ألا ترى أنَّ مَن صدَّقَ الرسولَ بأنَّ ما جاءَ به هوَ رسالةُ الله وقد تضمَّنت خبراً وأمراً فإنَّهُ يحتاجُ إلى مَقامٍ ثانٍ وهو تصديقُه خبرَ الله، وانقيادٌ لأَمرِ الله؟ فإذا قال :"أشهَدُ أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادةُ تتضمَّنُ تصديقَ خبرِه والانقيادَ لأَمره، فإذا قالَ: "وأشهَدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله" تضمَّنت تصديقَ الرسولِ فيما جاءَ به من عندِ الله، فبمجموعِ هاتين الشهادتين يتمُّ الإقرارُ.

فلمَّا كان التصديقُ لا بُدَّ منه في كلا الشهادتين، وهو الذي يتلقَّى الرسالةَ بالقَبول، ظنَّ مَن ظنَّ أنَّه أصلٌ لجميع الإيمان وغفَلَ عن أنَّ الأصلَ الآخَرَ لا بُدَّ منه وهو الانقيادُ، وإلا فقد يُصَدِّقُ الرسولَ ظاهِراً وباطِناً ثُمَّ يمتنِعُ من الانقيادِ للأمرِ، إذ غايتُهُ في تصديق الرسولِ أن يكونَ بمنزلةِ مَن سمِعَ الرسالةَ من الله سبحانه وتعالى كإبليس!

وهذا ممَّا يبيِّنُ لك أنَّ الاستهزاءَ بالله وبرسوله ينافي الانقيادَ له، لأنَّه قد بلغَ عن الله أنَّه أمَرَ بطاعته فصارَ الانقيادُ له من تصديقه في خبره، فمن لم ينقَدْ لأَمرِهِ فهو إمَّا مُكَذِّبٌ لهُ أو ممتنعٌ عن الانقياد لربِّه، وكلاهُما كفرٌ صريحٌ، ومَن استخفَّ به واستهزأَ بقلبه امتَنَعَ أن يكونَ مُنقاداً لأَمرِهِ، فإنَّ الانقيادَ إجلالٌ وإكرامٌ، والاستخفافَ إهانةٌ وإذلالٌ، وهذان ضِدَّان، فمتى حصلَ في القلبِ أحدُهما انتفى الآخرُ، فعُلِم أنَّ الاستخفافَ والاستهانةَ به ينافي الإيمانَ منافاةَ الضِدِّ للضِدِّ][1].

وقال رحمه الله:

[فبيَّن أنَّهم كفَّارٌ بالقول مع أنَّهم لم يعتقدوا صحَّتَه، وهذا بابٌ واسعٌ، والفقهُ فيه ما تقدَّمَ مِن أنّ التصديقَ بالقلب يمَنَعُ إرادةَ التكلُّمِ وإرادةَ فِعْلٍ فيه استهانةٌ واستخفافٌ، كما أنه يوجِبُ المَحبَّةَ والتعظيمَ..... فالكلامُ والفعلُ

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص (٩/٦).

المتضمِّنُ للاستخفافِ والاستهانةِ مستلزمٌ لعدَمِ التصديقِ النافعِ ولعدمِ الانقيادِ والاستسلامِ، فلذلك كانَ كفراً][1].

وقال أيضاً:

[فقد أَخبَرَ أَنَّهم كفَروا بعدَ إيمانِهم مع قولهم: إنَّا تكلَّمنا بالكُفر من غير اعتقادٍ له، بل كُنَّا نخوضُ وَنلعبُ، وبيَّن أَنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللَّهِ كفرٌ، ولا يكونُ هذا إلا ممَّن شرَحَ صَدرَهُ بهذا الكلام، ولو كانَ الإيمانُ في قلبه لَمَنَعَهُ أن يتكلَّمَ بهذا الكلام][2].

قال الإمامُ السعديُّ ﷺ:

[فإنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياته ورسولِه كُفرٌ مخرجٌ عن الدين، لأنَّ أصلَ الدين مبنيٌّ على تعظيمِ اللهِ وتعظيمِ دينِهِ ورُسُلِهِ، والاستهزاءُ بشيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصلِ ومناقِضٌ لهُ أَشَدَّ المناقَضَة.][3].

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول: ص٥٢٤.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٠).

(٣) تفسير الكريم الرحمن: ص٣٤٢.

قضية التلازم بين الباطن والظاهر

قال الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله:

[والقلبُ عليه واجبان لا يصيرُ مؤمناً إلا بهما جميعاً؛ واجبُ المعرفةِ والعلمِ، وواجبُ الحُبِّ والانقيادِ والاستسلام، فكما لا يكونُ مؤمناً إذا لم يأتِ بواجبِ العلم والاعتقاد، لا يكونُ مؤمناً إذا لم يأتِ بواجبِ الحُبِّ والانقياد](1).

لعلَّ قائلاً يقول: كيف نحكمُ بالكفر على من نطقَ الشهادتين صادقاً غيرَ منافق، وقد رضيَ بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً، وهو مصدِّق بالغَيبيَّاتِ لا يُنكِرُ منها شيئًا، ومع ذلك فهوَ من أَهلِ العِباداتِ الظاهِرَةِ ...إلخ ؟!

وقد يُشكِلُ على بعضِهم انطباقُ هذا الحُكم على مَن حَسُنَ حالُه الظاهرُ، كأن يكونَ ذا صلاةٍ وصيامٍ وجهادٍ، ثمَّ يكفرُ بكلمةٍ عابرةٍ ليس يقصُد منها سوى إضحاكِ إخوانِه وتلطيفِ الجوِّ لهم، وإدخالِ السُّرور إلى قلوبهم!

وجَوابُ هذا الإشكال أن نعلَمَ أولاً أنَّ الذين نزَلَتْ فيهم آيةُ التوبةِ كانوا في طريق عودتهم من غزوةِ تبوك حينما قالوا ما قالوا، وقد خرجوا للجهاد بأَنفُسِهم معَ رسول الله ﷺ، ولا شكَّ أنَّهم كانوا من أهل العبادات الظاهرةِ الأُخرى كالصلاةِ وغيرها، فلم يقُل أحدٌ من أهل العلم قاطبةً: إنَّ الأعمالَ الظاهرةَ من موانِع تكفيرِ المُعَيَّن، إلا أنَّنا نعتبرُها علاماتٍ وأماراتٍ على صلاح العبد توجِبُ علينا حُسنَ الظنِّ به، وحَملَ أقوالِه وأفعالِه على أَحسَنِ مَحمَل،

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٩٥).

إن كانت تحتَمِلُها وإلا فلا.

وقد ذكرتُ فيما تقَدَّمَ مفهومَ الإيمانِ وحقيقتَه عند أَهلِ السُنَّة والجماعة، وأنَّه قولٌ(ظاهرٌ وباطنٌ)، وعملٌ(ظاهرٌ وباطنٌ) وأنَّ هناك تلازماً بين الظاهر والباطن، فلا ينفكَّان عن بعضِهما البعض.

قال الإمامُ ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

[إنَّ الإيمانَ أصلُهُ الإيمانُ الذي في القَلبِ، ولا بُدَّ فيه من شَيئينِ؛ تَصديقٍ بالقَلبِ وإقرارِه ومَعرفتِهِ، ويُقالُ لهذا: (قَولُ القلبِ).

قال الجُنَيدُ بنُ محمَّدٍ: "التوحيدُ: قولُ القلبِ، والتَّوَكُّلُ: عَمَلُ القلبِ"

فلا بُدَّ فيه من قول القَلبِ وعمَلِهِ، ثُمَّ قَولُ البَدَن وعَمَلِهِ، ولا بُدَّ فيه من عَمَلِ القلبِ مِثلَ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَخَشيَةِ اللهِ وحُبِّ ما يُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ، وبُغضِ ما يُبغِضُهُ اللهُ ورسُولُهُ، وإخلاصِ العَمَلِ للهِ وحدَهُ، وتوكُّلِ القلبِ على اللهِ وحدَهُ، وغيرِ ذلك من أَعمالِ القُلُوبِ التي أَوجَبَها اللهُ ورسُولُهُ وجعَلها مِن الإيمان.

ثُمَّ القَلبُ هو الأَصلُ، فإذا كانَ فيهِ مَعرفَةٌ وإرادَةٌ سَرى ذلك إلى البَدَن بِالضَّرُورَةِ، لا يُمكِنُ أَن يتَخلّفَ البَدَنُ عَمَّا يُرِيدُهُ القَلبُ، ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ في الحَديثِ الصَّحِيحِ: (**أَلا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ لها سائِرُ الجَسَدِ وإذا فسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ أَلا وهي القَلبُ**)[1].

(١) رواه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

وقالَ أبُو هُرَيرَةَ رضي الله عنه:

"القلبُ مَلِكٌ والأعضاءُ جنودُهُ فإذا طابَ المَلِكُ طابَت جنودُهُ وإذا خَبُثَ المِلكُ خَبُثَت جنودُه" وقولُ أبي هُرَيرةَ تقريبٌ، وقولُ النَّبيِّ ﷺ أحسَنُ بياناً فإنَّ المِلكَ وإن كان صالِحاً فالجُندُ لهُم اختيارٌ قد يَعصُونَ به مَلِكَهُم وبالعَكسِ فيكونُ فيهم صلاحٌ معَ فَسادِهِ أو فسادٌ معَ صلاحِهِ، بخِلافِ القلبِ فإنَّ الجسَدَ تابعٌ لـه لا يَخرُجُ عن إرادتِهِ قَطُّ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ:

(إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ وَإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ).

فإذا كانَ القلبُ صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لَزِمَ ضَرُورَةً صلاحَ الجَسَدِ بالقَول الظاهرِ والعمَلِ بالإيمانِ المُطلَقِ، كما قال أئِمَّةُ أهلِ الحديث: قَولٌ وعَمَلٌ، قولٌ ؛ باطِنٌ وظاهِرٌ، وعمَلٌ ؛ باطنٌ وظاهِرٌ، والظاهرُ تابِعٌ لِلباطنِ لازِمٌ لَهُ متى صَلَحَ الباطِنُ صَلَحَ الظاهِرُ وإذا فسَدَ فَسَدَ][1].

وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر:

[فقد أخبرَ أَنَّهم كفروا بعدَ إيمانهم مع قولهم إنَّا تكلَّمنا بالكُفرِ من غير اعتقادٍ له، بل كنَّا نخوضُ ونلعَبُ، وبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بآيات الله كفرٌ، ولا يكونُ هذا إلا ممَّن شرحَ صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمانُ في قلبه لمنعه أن يتكلَّمَ بهذا الكلام، والقُرآن يبيِّنُ أنَّ إيمانَ القلبِ يستلزمُ العملَ الظاهرَ بحسبِه، كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/١٨٧-١٨٦).

أُولَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١] فنفى الإيمانَ عمَّن تولَّى عن طاعةِ الرسول، وأخبرَ أنَّ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكُمَ بينَهم سمعوا وأطاعوا، فبيَّنَ أنَّ هذا من لوازم الإيمان][١].

وقال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسير الآية:

[نبَّأ اللهُ رسولَه نَبَأً مؤكَّداً بصيغةِ القَسَم، أنَّه إن سألَهم عن أقوالِهم هذه يعتذرون عنها بأنَّهم لم يكونوا فيها جادِّينَ ولا مُنكِرين، بل هازلين لاعبين، كما هو شأنُ الذين يخوضون في الأحاديث المختلفة للتسلِّي والتلَهِّي، وكانوا يظنُّون أنَّ هذا عذرٌ مقبولٌ، لجهلهم أنَّ اتخاذَ أُمورِ الدينِ لَعِباً ولهواً لا يكونُ إلا ممَّن اتَّخَذَها هزواً، وهو كفرٌ محضٌ، ويغفل عن هذا كثيرٌ من الناس، يخوضون في القُرآن والوَعدِ والوعيدِ، كما يفعلون إذ يخوضون في أباطيلهم وأمور دنياهم].

وقال بعدها:

[وبعد أن نبَّأ اللهُ تعالى رسوله بما يعتذرون به لقَّنَه ما يرُدُّ به عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾

والمعنى: أنَّ الخوضَ واللَّعِب إذا كان موضوعُه صفاتِ الله وأفعاله وشرعه وآياته المنزلة، وأفعال رسوله وأخلاقه وسيرته، كان ذلك استهزاءً بها، لأنَّ الاستهزاء

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢٠/٧-٢٢١).

بالشيء عبارةٌ عن الاستخفاف به، وكلُّ ما يُلعبُ به فهو مستخَفٌّ به .. . .. كما أنّ من يحترم شيئاً أو شخصاً أو يعظِّمُه فإنَّه لا يجعلُه موضوعَ الخوض واللَّعِب !

وتقديمُ معمولِ فعلِ الاستهزاءِ عليه يفيدُ القصْرَ، والاستفهامُ عنه للإنكارِ التوبيخيِّ.

والمعنى : ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا اللهَ وآياتِه ورسولَه فقصرتم ذلك عليهما ؟!

فهل ضاقَتْ عليكم مذاهبُ الكلامِ تخوضونَ فيها وتعبثون دونَهما، ثمَّ تظنُّون أنَّ هذا عذرٌ مقبولٌ فتُدلون به بلا خوفٍ ولا حياءٍ].

ثمَّ قالَ رحمه الله تعالى بعدها:

[والآيةُ نَصٌّ صريحٌ في أنَّ الخَوضَ في كتاب الله، وفي رسوله، وفي صفات الله تعالى، ووعده ووعيده، وجعلَها موضوعاً للَّعِبِ والهُزْءِ، كلُّ ذلك من الكفرِ الحقيقيِّ الذي يَخرُجُ به المسلمُ من الملَّةِ، وتجري عليه به أحكامُ الرِّدَّةِ، إلا أن يتوبَ ويُجَدِّدَ إسلامه][1].

(١) تفسير المنار بتصرف عند تفسير آية التوبة (ولئن سألتهم......).

شروط الحكم عليه بالكفر

من خلال استقراءِ أقوال العلماء في هذا الموضوع وجدتُ أنَّهم أشـاروا إلى قيودٍ معيَّنَةٍ لا بدَّ من توفُّرها لكي نستطيعَ أن نحكمَ بالكفر على من صدَرَ منه ما يبدو أنَّه استهزاءٌ، ولعلَّنا نستطيعُ أن نعتبرَ هذه القيودَ شروطاً يجبُ مراعاتُها ولا يجوزُ تجاوزُها عند الحُكم.

أولاً: أن يكونَ اللفظُ صريحاً بالاستِخفاف.

قال الإمامُ النوويُّ رحمه الله:

[والأفعالُ الموجِبَةُ للكفرِ هي التي تصدُرُ عن عَمْدٍ واستهزاءٍ بالدين صريح][1].

فيخرُجُ بهذا ما كان عن غيرِ عمدٍ وهو الخطأُ، قال رسول الله ﷺ:

(**وُضِعَ عن أمَّتي الخَطَأُ والنسيانُ وما استُكرِهوا عليه**)[2]، ومنه سبْقُ اللسان.

ويخرُجُ بقولِه "صريحٌ" ما كان من الألفاظ يحتمِلُ في دلالتِه علَّةَ معـاني ولا يُعرَفُ مُرادُ المُتَكلِّمِ منها، فيحتاجُ إلى مَعرفَة المعنى الذي أرادَه.

---

(١) روضة الطالبين/ كتاب الردة (١٠/٦٤).

(٢) (صحيح ابن ماجه للألباني : ١٦٧٧)، قال عنه: صحيح ، وفي (تخريج مشكاة المصابيح : ٦٢٤٨) له ، وقال: صحيح بمجموع طرقه .

الصريحُ والمؤوَّل:

نحنُ لا يهمُّنا إسقاطُ الأَحكام على الأَعيان الذين تصدُرُ منهم تلك الأقوالُ كيفما اتفق، وإنما يهمُّنا في بحثنا هذا هو إثباتُ أنَّ المقالات التي يظهرُ فيها الاستخفافُ بالدين على نوعين:

الأوَّل: ما هو صريحٌ وظاهِرُ الدِّلالَةِ، فلا يَقبلُ التأويلَ ولا يَحتَمِلُ أكثرَ مِن وَجهٍ، ولا يُمكنُ أن يقولَه مسلمٌ ألبتَّةَ، وإن قالَه مَن انتسَبَ إلى الإسلام، فقد كفرَ ظاهراً وباطناً، مِثلُ الذين أَنزَلَ اللهُ فيهم آيةَ التوبةِ، فإنَّ أقوالَهم صريحَةٌ في الطعنِ بالرسولﷺ وتكذيبِ خبَره، وهذا ممَّا لا يُتَصَوَّرُ أن يقولَه مُسلمٌ، ولا يحتمِلُ التأويلَ ألبتَّةَ، ولا يُقبَلُ من قائلِه الاعتذارُ، لقوله تعالى لأَمثالهم :﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾، كما لا يُتَصَوَّرُ أن يقولَ شَريفٌ عن نفسه:" زوجتي أو أمِّي زانيةٌ" على سبيل الضَحِك والمِزاح !!

إنَّه لا يُمكنُ أن يقولَ هذه المقالةَ إلا دَيوثٌ عديمُ الغَيرَةِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عن القائِل.

ومثلُ ذلك أن يقولَ قائلٌ: "أنا الله"!! كالعِباراتِ التي نُقِلَتْ عن الحَلاَّج وابن عربيٍّ وابن سبعين، وغيرِهم من الزنادقة الذين لبسوا ثوبَ التصوُّف، ودلالاتُ ألفاظِهم على الاتِّحادِ والحُلولِ غيرُ قابِلةٍ للتأويل.

النوع الثاني: هو اللفظُ الذي يَحتَمِلُ أكثرَ من وجهٍ، فإذا قاله المسلمُ المعروفُ بصلاحه واستقامته فإنَّنا نحمِلُه على أخَفِّ الأوجُه، معَ القَولِ بتحريم

القول تحريماً ظاهراً كالفسق ونحوه، حَسْبَ درجةِ ما قال.

ومثالُه: لو قالَ قائلٌ: "الخبزُ خيرٌ من الله"!!

فهذه العبارةُ تحتَمِلُ مَعنيين: أحدُهما كفريٌّ، إذا أرادَ بكلمة "خير" التفضيل!

والثاني لا بأسَ به، إذا أراد "الخبزُ نعمةٌ من الله"!

ولا شكَّ أنَّ الحُكمَ يعتمدُ على المقالةِ من جهةٍ، وعلى القائل من جهةٍ أخرى، فإذا كانت المقالةُ صريحةً ظاهرةً كما في الدرجة الأولى، لا يُنظَرُ إلى القائل، وإن كانت غيرَ صريحةٍ يُنظَرُ إلى القائلِ، وإلى سياق الكلام، وإلى قرائِن الحال، فإن كانَ ممَّن عُرِفَ بالديانةِ والصلاح وحفظِ اللسان، حملنا عبارتَه على أَحسَنِ مَحْمَلٍ، واللهُ تعالى أعلم.

في المُقابل، قد يقترنُ بالكلام ما يدلُّ على الاستخفافِ، كضَحك المتكلِّم، أو ضحك السامعين، وكذلك أن يتكرَّر الفعلُ منه، فيدلَّ على أنَّه ديدَنٌ له، وليس هفوةً عابرةً منه، وهذا ما يُعرَف بالقرائن.

القرائنُ على الاستخفاف

وهذه المسألةُ في تقديري من المسائل الهامَّة جداً في هذه الرسالة، ذلكم بأنَّ مِنَ المشروع لأيِّ أحدٍ أن يسألَ، كيفَ لكم أن تحكموا على هذا القولِ الصادرِ من المتكلِّم بأنَّ فيه استخفافاً، وقد لا يدلُّ ظاهرُه على ذلك؟

فما هو الضابطُ والمِعيارُ الذي نستطيعُ وَفْقَهُ أن نحكمَ على المُتكلِّم أنَّه مُستهزئ؟

والجواب:

إنَّ الاستهزاءَ إمَّا أن يكونَ صريحاً جليًّا، وهذا لا يُحتاجُ فيه إلى ضوابطَ ومعايير، سوى ما يتعلَّقُ بشروطِ وموانعِ تكفيرِ المُعيَّن، وسيأتي الحديثُ عنها لاحقاً، وإمَّا ألاَّ يكون صريحاً، ويحتمِلُ أن يكون المتكلِّمُ جادًّا في كلامِه غيرَ هازلٍ، فيكون ضابطَ الحكمِ عليه بذلك وجودُ القرائنِ وعدمُها.

والقرائِنُ التي تدلُّ على الاستخفافِ والهَزْلِ عديدةٌ، من أهمِّها ضحِكُ المتكلِّم أثناء كلامه أو بعدَه، فلو كان جادًّا فلماذا يضحَك ؟!

وكذلك ضحِكُ السامعين مِن حوله، حتَّى لو لم يضحَك هو، لأنَّ من فنون أهل الفُكاهة وطرائقهم الهزْلية تمكُّنَ المتحدِّثِ من إضحاك العشراتِ من حوله دونَ أن يضحَكَ هو أو حتَّى يتبسَّم، بل قد يكونُ هذا الفعلُ منه أدعى لإضحاكِهم، والسؤالُ هنا هو ذاتُ السؤال، ما الذي أضحكَ القومَ إذا كان الحديثُ جادًّا ؟!

وهناكَ قرائِنُ عُرفيةٌ، قوليةٌ أو فعليةٌ، تختلفُ فيها الشعوبُ وأجناسُ الناس من مكانٍ إلى آخرَ، فيعرِفُ القومُ أنَّ هذا اللفظَ أو هذا الأسلوبَ أو هذه الحركةَ

أو هذا التعبيرَ فيه هزْلٌ ويستدعي الضحِكَ.

إنَّ هذا القولَ باعتبار القرائِن في الحكم ليس بِدْعاً، بل ذكرَهُ العلماءُ من قديم.

جاء عن الإمامين الرافعيِّ والنوويِّ رحمهما الله:

[نعم، إن ظهرَتْ منه قرينةُ استخفافٍ فالكفرُ ظاهرٌ]

[وهذه الصورُ تتبَّعوا فيها الألفاظَ الواقعةَ في كلام الناس، وأجابوا فيها اتفاقاً واختلافاً بما ذُكر، ومذهبُنا يقتضي موافقتَهم في بعضِها، وفي بعضِها يُشترَطُ وقوعُ اللفظِ في مَعرض الاستهزاء] انتهى كلام الشيخين[1].

وقال الإمامُ ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

[والكلامُ على أعيانِ الكلماتِ لا ينحصِرُ، وإنَّ جِماعَ ذلك: أنَّ ما يَعرفُ الناسُ أنَّهُ سبٌّ فهو سبٌّ، وقد يختلفُ ذلك باختلافِ الأَحوالِ والاصطلاحاتِ والعاداتِ وكيفيَّةِ الكلام ونحو ذلك، وما اشتبَه فيه الأمرُ أُلحِقَ بنظيره وشَبَهِهِ، والله أعلم][2].

وقد جاء في كتاب بدر الرشيد الحنفيِّ رحمه الله:

[مَن ضحِكَ مع الرضاءِ عمَّن تكلَّمَ بالكفرِ كفَرَ][3].

[رويَ عن أبي يوسفَ أنَّه قيلَ بحَضرةِ الخَليفة: إنَّ النبيَّ ﷺ يُحبُّ القَرْعَ،

(١) الحاوي للفتاوى ـ للسيوطي (١/ ٢٣٠).

(٢) الصارم المسلول: ص٥٤٣.

(٣) الجامع في ألفاظ الكفر: ص٢٣

فقال رجلٌ: أنا لا أحبُّه، فأمَرَ أبو يوسف بإحضارِ النِّطْعِ والسيفِ ....وتأويلُ هذا، أن قال بطريق الاستخفاف!!][1].

وهذا يعني أنَّ الطريقةَ التي تكلَّم بها الرجلُ، تُشعِرُ مَن شاهدَها بأنَّه مُستَخِفٌّ، من غير حاجةٍ إلى سؤاله، ماذا كنتَ تقصِدُ من كلامِك؟!

[ومَن قرأ آيةً في القُرآن على وجهِ الهَزْل.....كفر][2].

قال الشيخُ عليٌّ القاري[3] رحمه الله:

[وفي المحيط: مَن جلسَ على مكان مُرتَفعٍ، ويسألونَ منه مسائلَ بطريقِ الاستهزاءِ، ثمَّ يضربونَهُ بالوسائِدِ، أي: مثلاً وهم يضحَكون، كفروا جميعاً، أي لاستخفافِهم بالشرع][4].

[ومن استخفَّ بالإسلام كفَرَ وإن لم يتلفَّظ، ويكونُ بالفعل أيضاً، إذا دلَّ على الاستخفاف دِلالَةً ظاهرةً، كما إذا ألقى المصحفَ في القاذورات اختياراً، فإنَّا نحكُمُ بكفرِه وإن أنكَرَ الاستخفافَ، لأنَّ الظاهرَ مِن حالِهِ يُكذِّبُه في إنكاره][5].

ومن القرائن على الاستخفاف:

أن يتكرَّرَ منه الفعلُ المَرَّةَ بعدَ المَرَّةِ، ممّا يدلُّ على أنَّه ليس من قبيل الهفوَةِ

---

(١) شرح الشفا (٤٤٩/٢).

(٢) شرح الفقه الأكبر: ص ١٣٩.

(٣) هو علي بن سلطان بن محمد الهروي القاري الحنفي، ت ١٠١٤ هـ يُنظر " الأعلام " للزركلي (٢٩١/٤).

(٤) شرح الفقه الأكبر: ص١٤٥

(٥) إخلاص الناوي (١٣٣/٤).

والزلَّة العابرَةِ غير المقصودة !

قال القاضي عياض رحمه الله:

[وأمَّا مَن تكلَّم مِن سَقطِ القولِ وسُخْفِ اللَّفظِ مِمَّن لم يضبطْ كلامَه وأهمَلَ لِسانَه بما يقتضي الاستخفافَ بعظمةِ ربِّه وجَلالةِ مولاه، أو تمثَّلَ في بعض الأشياءِ ببعض ما عظَّمَ اللهُ من ملكوته، أو نزَعَ من الكلام لمخلوقٍ بما لا يليقُ إلا في حقِّ خالقِه، غير قاصدٍ للكفرِ والاستخفاف، ولا عامدٍ للإلحادِ، فإن تكرَّر هذا منه، وعُرِفَ به دلَّ على تلاعُبه بدينه واستخفافه بحُرمَةِ ربِّه، وجهلِه بعظيمِ عِزَّته وكبريائه، وهذا كفرٌ لا مِريَةَ فيه][1].

(١) الشفا (٢٩٩/٢).

هل يشترطُ العلمُ وقيامُ الحُجَّة على المستهزئ، أي: هل يُعذر المستهزئ بالجهل؟

إنَّ من أُسُسِ عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعة أنَّ الله تعالى لا يُعَذِّبُ قوماً إلا بعدَ إرسال الرُّسُل وإبلاغ الحجَّة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] وهم يفرِّقون بين التكفير المُطلَقِ وتكفيرِ الشخص المعيَّن، لأنَّ الكفرَ قد يصدُرُ من شخصٍ ما، ولا يكفرُ لاعتباراتٍ معيَّنَةٍ عدُّوها مانعةً من كُفره، وهي بمثابَةِ أعذارٍ شرعيةٍ لا يؤاخَذُ بسَببها، وموانع تكفير الشخص المعيَّن عندَهُم أربَعَةُ موانِعَ، وهي:

الإكراهُ، والخطأُ ـ سَبْقُ اللِّسانِ ـ والتأويلُ، والجَهلُ.

وهذه الأمورُ لا ينطبقُ على المستَهزئ منها شيء.

أمَّا الإكراه:

فإنَّ المُكرَهَ فاقدٌ للاختيار والرضا، وسُلطانُ المُستَكرِهِ على ظاهرِ المُكرَهِ لا على قلبه !! فلا يُمكنُ للمرءِ أن يُكرهَهُ أحدٌ على الاستخفافِ الذي هو عمَلُ القلب، ولا يُتصَوَّرُ منه الانبساطُ والضَّحِكُ مع عَدَم الرِّضا !!

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ [النحل:١٠٦]

وأمَّا الخَطأُ أو سَبْقُ اللسان:

فهو أن يُريدَ المرءُ قولَ شيءٍ فيُخطِئُ أو يتَلَعثَمُ فيُقَدِّم ويؤخِّر في الكلام، فيخرُج على معنىً آخرَ غيرِ مُرادٍ منه، كما جاء في الحديث الصحيح، عن فَرَحِ اللهِ تعالى بتوبة عبده.....وفيه قولُ العبد "اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأَ من شدَّةِ الفرح"

ولا أظنُّ أحداً يرى أنَّ هذا المانِعَ ينسحِبُ على الهازِلِ بحالٍ، فما الذي كان يريدُ أن يقولَه الهازلُ بكلامِه، فأخطأَ فيه؟!

وأمَّا التأويل:

فهو أن يكونَ اللفظُ حَمّالاً لعدَّةِ أوجُهٍ، فيُحمَلُ الكلامُ على معنىً غيرِ المعنى الظاهر لوجودِ قرينةٍ تدلُّ على أنَّ الظاهرَ غيرُ مُرادٍ، وإذا كان الأمرُ كذلك فإنَّ الكلام الذي يظهرُ من المستهزئ وقد اقترَنَ به ما يدلُّ على الاستخفاف، كالضَّحِك مثلاً، يدلُّ على أنَّ هذا المعنى هو المرادُ لا غيره.

وأمَّا الجَهل:

فربَّما يلتبسُ الأمرُ في هذا المانع على بعضِ طلبة العلم، فاشتراطُ العلم وقيامُ الحُجَّة هنا غيرُ واردٍ، وحكمُه حكمُ السبِّ تماماً، لجامِعِ التنقُّص والإهانة بينَ الأمرين، ولا يُشتَرطُ كما هو معلومٌ لكي يُحكَمَ على المرءِ بالكفرِ أن يَعلمَ أنَّ السبَّ حرام، فهذا مما لا يجهله أحدٌ مِمَّن شمَّ رائحةَ العلم، فإذا كان السبُّ

أو الاستهزاءُ صريحاً، بمعنى أنَّه يُفيدُ الإهانَةَ والتنقُّصَ بِصورةٍ قطعيةٍ، فلا يُسألُ هنا عن علمِه بالحُرمَةِ، حيثُ لا يوجدُ عاقِلٌ يَفهمُ من السبِّ غيرَ هذا، حتَّى لو زَعَم أنه لم يكن يقصد التنقُّص.

ونمثِّل هنا بقول النصارى فيما يعتقدونه ديانةً، أنَّ عيسى عليه السلام، ابنُ الله، وهذا بلا شَكٍّ من أعظَم السَّبِّ للذات الإلهية، وهو نسبةُ الولد إليه قال الله تعالى:﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم]، مع أنَّهم حينما يقولون ذلك لا يقصدون التنقُّصَ من الذات الإلهية قطعاً، ولا سبَّه سبحانه، بل يرون ذلك عينَ تعظيمِه، وهذا القصدُ الحَسَنُ لا يشفعُ لهم، وجهلهُم بأنَّ هذا سبٌّ لا يُخفِّفُ من جُرمِهم.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٤]

وضابطُ الأمرِ هنا في الحُكم على دلالةِ الألفاظ على المعاني هو العُرْفُ، فقد تختلِفُ الدلالاتُ باختلافِ الزَّمانِ والمَكان وعُرفِ الناس، فقد يكونُ لِلَّفظِ معنىً في بلدٍ، ومعنىً آخرُ في بلدٍ آخَرَ! أو يكونُ له مفهومٌ في زمنٍ، دون زمنٍ آخر.

خُذ على سبيل المثال لفظ "الشاطِر" فهي تُطلقُ اليومَ ويُرادُ بها المدحُ، فهي تدُلُّ على الذكاء والحِنكَةِ، بينما معناها في لغَةِ العرب واستخدامهم لها في القديم تدلُّ على معنىً قبيحٍ يتضمَّنُ وصفاً بذَمٍّ.

ولفظ "الأزْعَر" يُطلقُ في ديارنا (بلاد الشام) على الفاجِرِ سَيِّءِ الخُلُق، مع

أنَّ معناها في لغة العرب يدلُّ على خفيفِ شَعر الرأس! وليس فيه سُبَّةٌ للموصوف على الإطلاق.

فإذا دلَّ العُرْفُ في بلدٍ على أنَّ هذا اللفظَ يُطلَقُ ويُرادُ به التنقُّصُ والإهانةُ، أو يُرادُ به الهَزَلُ واللَّعِب، فهو المِعيارُ والضابطُ الذي يَجِبُ الصَيرورةُ إليه.

قال الإمامُ ابنُ تيمية رحمه الله:

[والاسمُ إذا لم يكن له حَدٌّ[1] في اللغة، كاسمِ الأرضِ والسماءِ والبَحرِ والشمسِ والقمرِ، ولا في الشرعِ، كاسمِ الصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والإيمانِ والكفرِ فإنَّه يُرجَعُ في حدِّهِ إلى العُرف، ....فيجبُ أن يُرجَعَ في الأذى والسَبِّ والشتمِ إلى العُرْفِ، فما عدَّهُ أهلُ العُرْفِ سَبًّا وانتِقاصاً، أو طَعناً، ونحو ذلك، فهو من السبِّ][2]. **وقال كذلك بعدَها:**

[والكلامُ على أعيانِ الكلماتِ لا يَنحصِرُ، وإنَّ جماعَ ذلك أنَّ ما يَعرِفُ الناسُ أنَّهُ سبٌّ فهو سبٌّ، وقد يختلفُ ذلك باختلافِ الأحوالِ والاصطلاحاتِ والعاداتِ وكيفيةِ الكلامِ ونحو ذلك، وما اشتَبَه فيه الأمرُ أُلحِقَ بنظيرِه وشَبَهِه، والله أعلم][3].

(١) الحدُّ: التعريف.

(٢) الصارم المسلول: ص٥٣٢.

(٣) الصارم المسلول: ص٥٤٣.

هل يشترط في الاستهزاء قصد التنقُّص؟
وهل يشترط في الكفر قصدُ الاستهزاء؟
وهل يشترط للكفر قصدُ الكفر؟

والكلامُ في هذه المسائل يزيدُ ما قبلَها وضوحاً :

ولا بدَّ لنا ابتداءً من التفريقِ بين شيئين ؛ بينَ الاستهزاءِ الجادِّ والاستهزاءِ الهَزْليِّ:

وقد تقدَّم كلامُ الشيخِ العُثيمين:

"فمن أتى بكلمَةِ الكُفرِ فهوَ كافرٌ، سواءٌ أتى بها جادًّا أم لاعبًا مازحًا"

وهذا ما قصَدَهُ العلماءُ كذلك بقولِهم : "عن عَمدٍ أو عن غير عمدٍ"، أي أنَّ مِن المستهزئين مَن يتعمَّد أن يجعَلَ الدِّينَ مَسخَرَةً ولَعِبًا لمرَضٍ في قلبه، وعداوةٍ في نفسِه، وهذا الحالُ قد يصدُرُ من العَلمانيِّين واليساريين والليبراليين ونحوهم، فاستهزاؤهم عن عَمدٍ، وهُم يُريدون بذلك النيلَ من الدين والشريعة التي يعتقدون أنَّها لم تَعُد صالحةً للتطبيق في هذا العصر، وأنَّ التمسُّكَ بها تخلُّفٌ ورَجعيةٌ وظلاميَّةٌ، وهُم يعتقدون وجوبَ فصل الدين عن الدولةِ ونِظامِ الحُكم، فما يُظهِرونَهُ من استهزاءٍ وتَهكُّم، إنَّما هو وجهٌ من وجوهِ النَّيلِ من الدين، والعمَلِ على إسقاطِ هَيبَتِه وقُدسيَّتِه من النفوس، بجعلِهِ مادَّةً للتنَدُّر والفُكاهة !! ومن صوَرِ الاستهزاءِ الجادِّ عندَهُم تناولُهُم لقضايا " تحرير" المرأة !! والدعوة لمُساواتها بالرجُل، وقضية تعدُّد الزوجات، وارتداء الخِمار، وإعفاء

اللحية، وقضية تطبيق الشريعة بكلِّ تفاصيلها، وأمورٍ كثيرةٍ لا تخفى على مُتَتَبِّعٍ ومُتابع.

من أمثلةِ ذلك: استهزاءُ الرَّافِضَةِ بصلاةِ أهلِ السُّنَّة، في صِفَةِ وَضعِ اليُمنَـةِ على اليُسرَةِ، بقولهم: أنتم تصطفُّون لـ"ضربةٍ حُرَّةٍ غير مباشرة"!! وهذا معروفٌ في لَعِبِ الكُرَةِ لا في الصلاة !!

وصِنفٌ آخرُ من الْمُتَعَمِّدين القاصدين، هم من الفسَقَةِ الْمُستهترين من أهل الفسادِ والعَربَدة، الْمُسَجَّلين في سِجلاَّت المسلمين، حياتُهم لهوٌ ولَعِبٌ وغَفلـة، وهُم لا يَحملون منهجاً فكرياً كحال الصنف الأول، وليس لـديهم مـن مبـادئِ الأَخلاقِ وأصولها ما يَردَعُهم عن الرذائِل والقبائِح، ولا شـيءَ مُقَـدَّس عنـدَهم، وهؤلاء هم قذى العُيون وحُمّى الأَرواح، القُربُ مـنهم مَـرَضٌ، والبُعـد عـنهم عافية، وما أكثرَهـم في مجتمعاتنا !! لا كثَّرَهـم الله.

وما زِلتُ أذكُرُ واحداً منهم كان له دُكَّانٌ إلى جِـوارِ المسـجِد، فيتعـرَّض لنـا ونحنُ صبيةٌ في مُقتَبَل العُمُرِ، عند دخولنا للمسجد مُتَهكِّماً قائلاً: أنـتم يـا أهـلَ الجَنَّةِ مساكينُ، يُرثى لحالِكم في فصل الشتاء، أمَّا نحنُ أهلُ النـارِ فأفضـلُ مـنكم حالاً، لأننا نَنعم بالدِفْءِ!!

وهؤلاء لهم طرائفُ لا تُحصى عن الـدين وأهلـه، وعـن الرُّسُـل علـيهم الصلاةُ والسلامُ، وعن الملائكة الكِرام، بل حتَّى عـن اللهِ سُـبحانَه ذي الجـلال والإكرام ! وكثيرٌ من هؤلاء لا يَرَون أنَّهم قد أَتَوا بذلك كُفـراً، لأنَّهـم يقولـون

ذلك من غيرِ اعتقادٍ له، بل هو على سبيلِ الدُّعابةِ والمَرَح!!

سَمعتُ أحدَهم يوماً يقول: أمَّا أنا فالمَلَكُ الموَكَّلُ بِكَتْبِ سَيِّئاتي أُشفِقُ عليه، فهو يعمَلُ ليلَ نهارَ بلا تَوقُّف، وأمَّا المَلَكُ الموَكَّلُ بِكَتْبِ الحسَنات فهو مُستريحٌ بلا عَمَل!

ثمَّ راحَ يصرُخُ عن يمينِه قائلاً: قُمْ يا هذا وساعِدْ صاحبَك!!

وأمَّا الصِنفُ الثالثُ من أصنافِ القاصِدين الاستهزاءَ الجادَّ، فهُم أهلُ الأهواءِ والبِدَع المخالفين في مسائل الدين لأهل السُنَّة والجماعة، سواء في مسائل الاعتقاد أم في العبادات.

فمن أمثِلة الأوَّل: استِهزاءُ بعضِهم بصفة النُّزول الإلهي إلى السماء الدنيا في الثُلُثِ الأخيرِ من كلِّ ليلة، وكذلك دُنوُّهُ يومَ عرفَةَ من أهلِ الموقِفِ من الحَجيج، وقد صَحَّت في ذلك الرواياتُ، فقد بَلَغني أنَّ بعضَ المتبوعين من هؤلاء يقولُ لتلاميذِهِ ساخِراً من أَهلِ السُّنَّةِ: إنَّ ربَّ هؤلاءِ يظَلُّ صاعِداً نازلاً، نازِلاً صاعِداً!!

والتلاميذُ بينَ يدَيه ومِن حَوله يتضاحَكون!

إنَّ هؤلاءِ القَومَ جادُّون في سُخريَتِهم، لأنَّهُم يعتَقِدون أنَّ اللهَ تعالى لا يجوزُ في حَقِّه النُّزولُ لأنَّهُ صِفَةٌ للحَوادِث، فيتأوَّلونَه إلى مَعانٍ أُخرى، زاعمينَ أنَّ النُّزولَ الإلهيَّ مجازيٌّ وليسَ حقيقياً!!

ومن صوَرِ ذلك الصِّنفِ، ما اشتُهِرَ عن أَحَدِ الشيوخ المـبرَّزين منهم في زماننا، سُخريتُه من أحاديثِ الصراط، وأنَّه مدحَضَةٌ مزَلَّة، وأنَّه أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف، وأنَّ عليه كلاليبَ تخطِفُ العُصاةَ إلى الهاويَة، وأنَّ الناس يجوزونه بحسب أعمالهم، فيقولُ مُتَهَكِّماً ضاحِكاً: ينبغي على الناس أن يتدرَّبوا جيداً لأنَّهُم سيلعبون (السيرك) يوم القيامة !! ما هذه الخُزَعبَلات!! وقد سبَقَهُ إخوَةٌ له من مدرسَتِهِ الفِكريَّةِ، وعلى شاكِلَته، سَخِروا من حديثِ (لَطْم موسى عليه السلامُ عينَ ملَكِ الموت)! وحديثِ (الكلبُ الأسودُ شَيطان)! ومسألةِ قِتالِ الملائكةِ إلى جَنبِ المؤمنينَ يومَ بَدر! وحديثِ (إذا سقَطَ الذُّبابُ في إناءِ أَحَدِكم....) وغير ذلك كثير.

وضابطُ الحُكم عليهم في هذه الحالَةِ، أن يُنظَرَ في الأَمر الذي سَخِروا منه مما يعتقدون أنَّه ليس من الدين، وأنَّهُ لم يثبُت عندَهُم، فإن كان من المُحكَماتِ القَطعيَّاتِ والمعلوماتِ من الدينِ بالضَّرورَةِ والخِلافُ فيه غيرُ سائغٍ، ولا يحتَمِلُ التأويلَ، فإنَّه يكفُرُ بذلك ولا رَيب.

وأمَّا ما لم يكُن كذلك، وكان صاحبُه مُتأوِّلاً فلا يكفرُ بذلك ـ والله أعلم ـ مع التنبيه إلى أنَّ السُّخريَةَ بمثلِ هذه المسائِل من الخطورة بمكان، ولا تصدُرُ إلا من أَهلِ الفسوقِ والعِصيان، وليسَ مِن أَهلِ التَّقوى والإحسان.

وأمَّا مَسألةُ القَصد، فقد التبَسَ على كثيرٍ من طلبةِ العلم فلم يُفرِّقوا بين قصدِ الفِعلِ وقَصدِ الكُفر، والفرقُ بينهما كما بين الثَرى والثُريَّا !

فعندما يَشترِطُ العلماءُ القصدَ فيمَن صدَر منه الكفرُ ليكونَ كافراً، إنَّما مُرادُهم قصدُ الفعلِ **ولا** ريبَ، كمَن داسَ المصحَفَ ولم يرَه، أو صلَّى إلى القِبلَةِ وفي جِهَتِها نارٌ، أو لَبِسَ الصليبَ وهو لا يعلَمُ أنَّه صليبٌ، ونحو ذلك.

أمَّا قصدُ الكفر، بمعنى أنَّ المرءَ يقولُ القولَ أو يفعلُ الفعلَ لأنَّه يريدُ أن يكفرَ بالله تعالى، ويبحَثُ عن **الوسيلة** التي يُحَقِّقَ بها مُرادَه، فهذا أمرٌ بعيدُ الوقوع.

وفي جميع الأَمثلةِ المتقدِّمَة، إذا كان مَن صدَرَ منه الكفرُ يعلمُ ما يفعَلُ، فهل ينطبِقُ عليه القولُ بأنَّه لا يقصِد؟! فما الشيءُ الذي لا يقصِدُه؟!

فالقولُ بأنَّه لا يكفرُ إلا إذا كان قاصداً الكفرَ، هذا من أشنَعِ أقوال أهل البدَع في الإيمان، وهو قولُ غُلاة المُرجِئة!

قال الإمامُ بدرُ الدين الزركشيُّ رحمه الله:

[فمن **تكلَّم** بكلِمَةِ الكُفرِ هازلاً، ولم يقصِد الكفرَ كفَر، وكذا إذا أخذَ مالَ غيرِه مازحاً ولم يقصِد السَّرِقةَ حَرُمَ عليه][1].

قال الإمامُ ابنُ تيميَةَ رحمه الله: [وبالجُملَةِ، مَن قالَ أو فَعَلَ ما هو كفرٌ كَفَرَ بذلك وإن لم يقصِد أن يكون كافراً، إذ لا يقصِدُ الكفرَ أحدٌ إلا ما شاءَ الله][2].

---

(١) يُنظر" المنثور في القواعد الفقهية" (٢/٣٨٠).

(٢) الصارم المسلول: ص١٧٧

وقال: [فدلَّ على أنَّه كان عندَهم إيمانٌ ضعيفٌ، ففعلوا هـذا المحـرَّم الـذي عرفوا أنَّه محرَّم، ولكن لم يظنُّوه كفراً، وكان كفراً كفروا بـه، فـإنَّهم لم يعتقـدوا جوازَه، وهكذا قالَ غيرُ واحدٍ من السلف][1].

قال البيجوريُّ: [....لكن لا يظهَرُ الاستهزاءُ في النيَّةِ، وإنَّما يظهَرُ في القَولِ والفِعل][2].

وقال محمَّدٌ ابنُ عابدين الحنفيُّ رحمه الله:

[وفي "الفتح": من هزلَ بلفظِ كُفرٍ ارتدَّ وإن لم يعتقِدهُ، للاستخفاف، فهو ككفر العناد]، وفي حاشية "ردُّ المُحتار" قال:

[قوله: (مَن هَزَلَ بلفظِ كُفر) أي تكلَّمَ به باختياره غير قاصـدٍ معنـاه...وكمـا لـو سجَدَ لصنَمٍ أو وضعَ مصحفاً في قاذورةٍ، فإنَّه يكفرُ وإن كان مصدِّقاً،...][3].

وقال سليمانُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ بنِ عبدِ الوَهَّاب:

[أجمَعَ العلماءُ على كُفر من فعَلَ شـيئاً مـن ذلـك، فمـن اسـتهزأ بـالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه كفَرَ ولو هازلاً لم يقصِد حقيقَةَ الاستهزاءِ إجماعاً][4].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٢٧٣).

(٢) حاشية البيجوري على ابن قاسم (٢/٢٦٤).

(٣) ينظر، ردّ المحتار على الدرّ المختار(٦/٣٥٦ـ٣٥٨) دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

(٤) تيسير العزيز الحميد : ص٦١٧

قال فخرُ الدين الفَرغانيُّ الحنفيُّ رحمه الله[1]:

[من كفرَ بلسانه طائعاً وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان فإنَّـه كـافرٌ، ولا ينفعُـه مـا في قلبه، ولا يكونُ عندَ اللهِ مؤمناً][2].

وقال أبو المعالي الحنفيُّ رحمه الله[3]:

[لا شكَّ أنَّه يكفرُ وإن لم يعتقِد أنَّها لفظةُ الكفر، لأنَّه أتى بها عن اختياره، يكفرُ عندَ عامَّةِ العُلمـاء، خِلافـاً للـبعض، ولا يُعـذَرُ بالجهـل، وأمَّـا إذا أرادَ أن يتكلَّمَ فَجَرى على لسانِهِ كلِمَةُ الكُفر من غير قَصدٍ فلا يكفر][4].

(١) الحسن بن منصور: ت٥٩٢ هـ.

(٢) فتاوى قاضيخان على هامش الفتاوى الهندية (٥٧٣/٣).

(٣) تاج الدين أحمد بن عبد الرحمن التدمريُّ.

(٤) "رسالة في ألفاظ الكفر" نقلاً عن كتاب " الجامع في ألفاظ الكفر" ص٤٢٩

معنى الكفر وحقيقته وأنواعه

ولكي تكتَمِلُ الصورةُ من جَوانبها المختلفة، ينبغي أن نعلَمَ ماهيـةَ الكفـرِ وحقيقتَه، وأنواعَه، ولو بصورةٍ مُقتَضَبَة:

تعريفُ الكفر:

في اللغة: السَّترُ والتغطيَةُ، يُقال للابس السلاح كـافِرٌ، وهـو الـذي غطَّاه السلاحُ، والكافر: الزَرَّاع، لسَتره البذرَ بالتُّراب، والكُفَّار: الـزُّرَّاع، ومنـه قولُـه تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد:٢٠].

والكافرُ: الليلُ، وفي الصحاح: الليلُ المظلِمُ، لأنَّه يسترُ بظُلمَته كلَّ شيء.

والكفرُ: جحودُ النِّعمَة، وهو ضِدُّ الشُّكر، وكفَّرَ الرجلَ، بالتشـديد: نسَبَه إلى الكفر[1].

حقيقتُه الشرعيَّة :

هو نقيضُ الإيمان، فالإيمانُ عندَ السَّلَفِ قولٌ واعتقادٌ وعمَـلٌ، وضـدُّ ذلـك الكفرُ، ويكونُ كذلك بالقول أو الاعتقاد أو العمل.

والكفرُ نوعان:

---

(١) لسان العرب : (١٣/ ٨٤ _ ٨٥)، مختار الصحاح ص ٢٧١، القاموس المحيط(٢ / ٢١٦ _ ٢١٧).

الأوَّل: ما يَخرُجُ صاحبُه من مِلَّةِ الإسلام، وهو ما كان منافياً لأَصل الإيمان، فيُحيطُ العَمَلَ بالكُلِّية، واصطلحوا عليه "الكفرُ الأكبر".

والثاني: لا يَخرجُ صاحبُهُ من الملَّة، وهو ما كان منافياً لكمال الإيمان، ولا يحِيطُ كلَّ العمَل، واصطلحوا عليه "الكفرُ الأصغَر" والتصغيرُ هنا ليس لأَجلِ التهوين من شأنِه، ولكن للتفريق بينَه وبين الأكبر، وإلا فهو من كبائر الذنوب ولا شَكَّ، بل سَمَّاهُ الشرعُ كفراً للتغليظ له، والتنفير منه.

وقد قسَّم بعضُ العلماءِ الكفرَ الأكبرَ المُخرجَ من الملَّة إلى خمسةِ أنواعٍ، ورَدَ ذكرها في القُرآن والسُّنَّة.

قال الإمامُ ابنُ القَيِّم رحمه الله:

[وأمَّا الكفرُ الأَكبر، فخمسةُ أنواع: كفرُ تكذيب، وكفرُ استكبارٍ وإباءٍ مع التصديق، وكفرُ إعراضٍ، وكفرُ شكٍّ، وكفرُ نِفاق.

فأمَّا كفرُ التكذيب:

فهو اعتقادُ كذِبِ الرُّسُل، وهذا القسمُ قليلٌ في الكفار، فإنَّ الله تعالى أيَّدَ رُسُلَهُ وأَعطاهُم من البراهين والآيات على صدقِهم ما أقامَ به الحجَّةَ، وأزالَ به المعذِرَةَ، قال اللهُ تعالى عن فرعونَ وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤] وقال لرسوله ﷺ:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣] وإن سُمِّيَ كفرَ تكذيبٍ أيضاً فصحيح، إذ هو تكذيبٌ باللسان.

وأمَّا كفرُ الإباءِ والاستكبار:

فنحو كفر إبليسَ، فإنَّه لم يجحَد أمرَ الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقَّاهُ بالإباء والاستكبار، ومِن هذا كُفْرُ مَن عَرَفَ صِدقَ الرسول، وأنَّه جاءَ بالحقِّ من عند الله، ولم يَنقَد له إباءً واستكباراً، وهو الغالبُ على كفرِ أعداءِ الرُّسُل، كما حكى الله تعالى عن فرعونَ وقومه﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]، وهو كفرُ اليهود، كما قال تعالى:﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[البقرة:٨٩]

وقال سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] وهو كفرُ أبي طالبٍ أيضاً، فإنَّه صدَّقَهُ ولم يشُكَّ في صِدقِهِ، ولكن أخَذَته الحَمِيَّةُ وتعظيمُ آبائِه أن يرغَبَ عن مِلَّتِهم، ويشهَدَ عليهم بالكفر.

وأمَّا كفرُ الإعراض:

أن يُعرِضَ بسمعِهِ وقلبه عن الرسول، لا يصدِّقُه ولا يُكذِّبُه، ولا يواليه ولا يُعاديه، ولا يُصغي إلى ما جاءَ به البتَّةَ.

وأمَّا كفرُ الشَّكِّ:

فإنَّه لا يَجزِمُ بصدقِه ولا يِكَذِبه، بل يشُكُّ في أَمره، وهذا لا يستَمرُّ شكُّهُ إلا إذا أَلزَمَ نفسَه الإعراضَ عن النَّظَرِ في صدق الرسولﷺ جملةً، فلا يسمعُها ولا يلتفِتُ إليها، وأمَّا مع التفاته إليها، ونظَرِه فيها، فإنَّهُ لا يَبقى معهُ شكٌّ، لأنَّها مستلزِمَةٌ للصدق، ولا سيَما بمجموعها، فإنَّ دلالتَها على الصدقِ كدلالة الشمسِ على النهار.

وأمَّا كفرُ النفاق: فهو أن يُظهِرَ بلسانه الإيمانَ، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو كفرُ النفاقِ الأكبر][1].

---

(١) مدارج السالكين(١/٣٦٦ـ٣٦٧).

الرِّدَّةُ ، معناها وأحكامها

كفرُ المستهزئ بعدَ إيمانه ردَّةٌ، لأنَّ الرِّدَّةَ هي الكفرُ بعدَ الإيمان.

وتكونُ بالقول أو بالفعل أو بالجحود أو بالشكِّ أو بالتَرك، ومن ذلك الاستهزاءُ بالقول أو الفعل، هذه عقيدةُ أَهلِ السنَّةِ والجماعة.

جاء في (كشَّاف القِناع عن مَتن الإقناع):

[باب حُكمُ المُرتدِّ وهو:

لُغةً: الراجِعُ، يُقالُ ارتَدَّ فهوَ مُرْتَدٌّ إذا رَجَعَ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾.

وشَرعاً: (الذي يكفُرُ بعدَ إسلامه) نُطقًا أَو اعتقاداً أَو شكًّا أَو فعلاً (ولو مُمَيِّزاً) فتَصِحّ رِدَّتُهُ كإسلامِهِ ويأْتي(طَوعاً) لا مُكرَهاً، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] (ولو) كان (هازِلاً) لِعُمُومِ قوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة:٥٤] الآيةَ، وحديث ابن عبَّاسٍ مرفوعاً: (من بَدَّلَ دينَهُ فاقتُلوه) رواهُ الجماعةُ إلا مُسلماً.

وأجمعوا على وجوبِ قتله: قَال في المُغني والشَّرح:

[ولا ينبغي أَن يُكتَفى في الهازئ بذلك بمُجَرَّدِ الإسلامِ حتَّى يُؤَدَّبَ أدَباً يَزجُرُهُ عن ذلك، لأنَّهُ إذا لم يُكتَفَ مِمَّن سَبَّ رسولَ الله ﷺ بالتَّوبةِ فهذا أَولى.

(أو أَتى بقولٍ أو فعلٍ صَريحٍ في الاستهزاءِ بالدِّين) الذي شرَعَهُ اللهُ كفرَ لِلآيةِ السَّابقَة (أو وُجِدَ مِنهُ امتِهانٌ لِلقُرآن أو طَلَبُ تناقُضه أو دعوَى أنه مُختَلفٌ أو) أَنَّهُ (مُخْتَلِفٌ أَو مقدُورٌ عَلى مثله أو إسقاط لحُرمَتِهِ) كفَرَ، لقولِهِ تعالى :﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١]

تعقيب:

انظُر ـ وفَّقَكَ الله ـ إلى قوله: "فهـذا أولى" ، أي أنَّ رَدعَ المسـتهزئِ وتأديبَـه واجبٌ حتَّى لو تابَ ودَخَلَ في الإسلام، بقياسِ الأَولى على السابِّ التائبِ بعـدَ الرِّدَّةِ، وهذا يعني أنَّ الاستهزاءَ أعظَمُ من السَّبِّ، وهذا القياسُ بـالأولى ظـاهِرٌ، ولكنَّ كثيراً من الناس لا يفقَهون ذلـك، ويَـرَونَ أنَّ السَّـبَّ أَعظَـمُ كُفـراً مـن الاستهزاءِ، فوَجَبَ التنبيهُ إلى ذلك.

وأظهَرُ الأوجُهِ في تغليظِ الهَزْل على السبِّ ـ في نظري ـ ما يلي:

أولاً: أنَّ السَّابَّ قد يسُبُّ في الغالِبِ وهو غَضبان، وأمَّا الهازِلُ فيَسُبُّ وهو يَضحَك !!

ثانياً: أنَّ السَّابَّ يعلَمُ أنَّه أَخطَأَ، وقد يدعوه ذلك للندَم والتوبَةِ من قريب، بخِلافِ الهازل، فهو لا يشعُرُ عادَةً بخطورةِ مـا يصـنَعُ، مـا يجعَلُـهُ مُكَـرِّرًا ومُعـاودًا لصَنيعه !

ولماذا يتوبُ وهو عندَ نفسِه لم يصنَعْ ما يَستَوجِبُ التوبَةَ ؟!

ثالثاً: أنَّ مَن سَمِعَ الشَّاتِمَ يَستنكِرُ ذلكَ منهُ ولا يَرضـاهُ، وقـد يُغلِـظُ عليـه

النَّكيرَ، بينَما سامِعُ الهازلَ غالِباً ما يُجامِلُهُ ويُشارِكُهُ في الضَّحِك.

وقالَ الإمامُ ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

[فإنَّ كانَ مُسلِماً وجَبَ قتلُهُ بالإجماع، لأنَّهُ بذلك كافرٌ مُرتَدٌّ وأَسوأُ من الكافر، فإنَّ الكافرَ يُعظِّمُ الرَّبَّ[1]، ويعتقدُ أنَّ ما هو عليه من الدِّينِ الباطِلِ ليسَ باستهزاءٍ باللهِ ولا سُبَّةٍ له][2].

وقد مرَّ معنا آنِفاً قولُ الدكتور عبدِ الكريم زَيدان:

[ولهذا لو تكلَّم بكلمة الكفر هازلاً صار مرتَدًّا عن الإسلام، وإنَّما كان الحكمُ هكذا وإن كان الهازلُ لا يقصِدُ الردَّةَ ولا يُريدُها، لأنَّ التكلُّمَ بكلِمَةِ الكفرِ هَزلاً استخفافٌ بالإسلام، والاستخفافُ به كُفر][3].

جاءَ عن الإمام بَدر الرَّشيدِ رحمه الله:

[من كفَرَ بلسانه طائِعاً وقلبُهُ مُطمَئِنٌّ بالإيمان فإنَّهُ كافِرٌ، ولا ينفَعُهُ ما في قلبه، ولا يكونُ عندَ اللهِ مؤمناً][4].

قال الشيخُ العثيمينُ رحمه الله:

[ولهذا قال العلماءُ، رحمهُم الله : مَن قالَ كلِمَةَ الكُفرِ ولو مازحاً: فإنَّهُ يكفُرُ،

---

(١) حيث أنَّ ذلك من صميم دينه، الذي يعتقد أنه دين الحق، وأن الله تعالى ارتضاه لعباده.

(٢) الصارم المسلول : ص٥٤٧.

(٣) الوجيز: ص١١٧.

(٤) ألفاظ الكفر : ص٢٣.

ويجبُ عليه أن يَتوبَ، وأن يعتقِدَ أَنَّهُ تابَ مِن الرِّدَّةِ، فيُجَدِّدَ إسـلامَهُ، فآيـاتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ورَسولُهُ أَعظَمُ مِن أَن تُتَّخَذَ هُزُوًا أو مَزْحًا][1].

لماذا لم يقبَل اللهُ اعتذارَهم في تبوك ؟!

المعتذِرُ هو من يذكُرُ عن نفسِهِ ما يَراهُ عُـذرًا سـائِغًا، ولكـن قـد لا يكـونُ كذلك في الواقِعِ ونَفسِ الأَمر، فيُرَدُّ ذلك عليه، بخِلافِ التَّائِبِ والمستَغفِر، الذي يَتَضَمَّنُ استغفارُهُ الإقـرارَ والاعـترافَ بالخَطَـأِ، فهـوَ يطلُـبُ الصَّـفحَ والعفـوَ، ويعتقدُ أنَّه يستَحِقُّ المؤاخَذَةَ والمعاقَبَةَ، وهو مُعتَـرِفٌ بالجنايَـةِ، أمَّـا المعتَـذِرُ فهـو يُطالِبُ بعدَمِ المؤاخَذَةِ، لأنَّهُ يعتقِدُ بأنَّهُ لا يستَحِقُّها بسَبَبِ ما يراهُ في نفسِهِ عُذرًا، فهؤلاءِ القَومُ المستَهزئونَ لم يعتَرفوا بالجنايَةِ والخَطَأِ، بل اعتَذَروا بأنَّهُم كانوا غيرَ جادِّينَ ولا قاصدينَ الإساءَةَ والتَّـنَقُّصَ، وإنَّمـا فعلـوا ذلـك علـى سـبيلِ اللَّهـوِ واللَّعِبِ ودَفعِ سآمَةِ الطَّريقِ، فَهُم يرَونَ هذا الشيءَ لا يستوجِبُ المؤاخَذَةَ !

لذا جاءَ الجوابُ ﴿لَا تَعْتَـذِرُواْ﴾ أي : إنَّ عذرَكُم غـيرُ مقبـول! ولـو قـالوا: نستغفِرُ اللهَ، نتوبُ إلى الله، لمـا قـالَ لهـم التـوَّابُ الـرَّحيمُ " لا تسـتغفروا .. لا تتوبوا" فبابُ التوبَةِ مفتوحٌ، واللهُ تعالى لا يَرُدُّ التائبين

(١) "لقاءات الباب المفتوح" (٦٠/ السؤال الأول).

من لوازم تعظيم الله تعالى تعظيم القُرآن لأنَّه كلامه

قال القاضي عياض رحمه الله:

[اعلم أنَّ مَن استخفَّ بالقُرآنِ أو المصحَفِ أو بشيءٍ منهُ أو سبَّهما، أو جحَدَهُ أو حرفاً منهُ أو آيةً، أو كذَّبَ به أو بشيءٍ منه، أو بشيءٍ مِمَّا صَرَّحَ به فيه من حُكمٍ أو خبَرٍ، أو أثبَتَ ما نفاهُ أو نفى ما أثبَتَهُ، على علمٍ منه بذلك، أو شَكَّ في شيءٍ من ذلك، فهو كافرٌ عندَ أهلِ العلمِ بإجماع][1].

وقال: [والنَّصيحَةُ لكتابه: الإيمانُ به، والعمَلُ بما فيه، وتحسينُ تِلاوته، والتَخُشُّعُ عندَه، والتعظيمُ له، وتفهُّمُه والتفقُّهُ فيه، والذَّبُّ عنه من تأويلِ الغالينَ وطَعْنِ المُلحِدين....][2].

والقُرآنُ كلامُ اللهِ تعالى، قالَ سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] وكلامُهُ صِفَةٌ من صفاتِهِ جَلَّ جلالُه، وتعظيمُ أسمائِه وصفاتِهِ من ضَروريَّاتِ تعظيمِهِ، فلا يُتَصَوَّرُ أن يجتَمِعَ إيمانٌ صحيحٌ في القلبِ معَ استِخفافٍ بالقُرآنِ المجيدِ وآياتِهِ الكريمَةِ التي هي كلامُهُ !!

وقد ذكَرتُ آنِفاً أنَّ سبَبَ تأليفِ هذه الرسالَةِ إنَّما هو ما انتَشَرَ في أوساطِ المُلتَزمين من قُرَّاء القُرآنِ من تَلاعُبهم بآياتِ القُرآن، على وَجهٍ يجعلُهُم على خطَرٍ عظيمٍ ومجازفةٍ كبيرةٍ في دينِهم وإيمانِهم !

---

(١) الشفا (٢/ ١١٠١).

(٢) الشفا (٢/ ٥٨٣).

حالُ المؤمنين عندَ سَماعِ القُرآن

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣]

فلا عجَبَ أن نرى رسولَ الله ﷺ إذا قرأهُ في صـلاته يُسـمَعُ لصَـدرِهِ أَزيـزٌ كأزيزِ المِرجَلِ[1] مِن البُكاءِ، وكانَ يقومُ به عامَّةَ ليله، حتَّى تورَّمَت قدماه !

ولا عجَبَ من بُكاءِ أبي بكرٍ في صلاتِه حتَّى أنَّهُ لا يكادُ يُفصِحُ في قراءَته !

ولا عجَبَ مِن تهاوي عمَرَ الفاروق على شدَّتِهِ وصَلابَتِهِ أَمامَ هَيبَةِ القُـرآن ومجدِهِ، فيَخِرُّ إلى الأَرض، لا تقوى قدماهُ على حملِـهِ لسَـماعِهِ آيَـةً منـه، ويمـرَضُ ويعودُهُ النَّاسُ شَهرًا لا يعلمونَ ما علَّتُه، وما به والله من علَّة سوى الوَجَل .

وكما كان الحالُ مع الصحابةِ الكرامِ فقـد كـان كـذلك مـع تـابعيهم بإحسـانٍ، ومنهم من كان يخِرُّ صريعاً لما يعتريه من حالِ الوجَلِ والتَّعظيم، كما حَصَـلَ مـعَ زُرارَةَ بنِ أَبي أَوفى، عندَما سَمِعَ قولَهُ تعـالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ [المـدثر:٨] خـرَّ ميِّتاً.

وكذلك مع عليٍّ بنِ الفُضيل بن عِياض، والقائمةُ تطول.

---

(١) المِرجَل: القِدر.

صورٌ من استهزاءِ سُفَهاءِ زمانِنا ومِن أعداءِ الدين

ذكرَ النبيُّ ﷺ، أنَّ المسلمين إذا ما تركوا الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكَرِ، والجهادَ في سبيلِ اللهِ، فإنَّ اللهَ تعالى سيُسَلِّطُ عليهم ذلاً لا يرفَعُهُ حتَّى يُراجِعوا دينَهُم.

وها نحنُ نرى اليومَ تحقُّقَ ذلك الوعيدِ، فقد وصَلَ المسلمون في عصرنا إلى حَدٍّ من الذُّلِّ والهَوانِ أنَّهُم لا يملكونَ حتَّى الدِّفاع عن دينهم، والذبَّ عن جنابِ ربِّهم تبارك وتعالى، فترى المسلمَ يسمَعُ سَبَّ رَبِّه بأُذنَيه ثمَّ لا يملِكُ إلا أن يُحَوقِلَ ويَستَرجِعَ، وتراهُ يقرأُ الكفرَ والاستهزاءَ بدينه في ما يُنشَرُ على المَلأ في الصُّحُفِ والمجلاَّتِ ووَسائِلِ الإعلامِ المختلفة، ولا يستطيع أن يُغيِّرَ من ذلك شيئاً، ونحنُ نقولُ ما قالهُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١]، فإذا لم يترك المنتسبون إلى الإسلام منا السُّخريَةَ والاستهزاءَ بدينهم، فإنَّا سنسمَعُهُ من الكفارِ أعداءِ الله تعالى على نطاقٍ واسِعٍ، ولن يرفَعَ اللهُ عنَّا ذلك الأذى حتَّى نُراجِعَ ونُصلِحَ أنفُسَنا، ونُطَهِّرَ صُفوفَنا، ونتوبَ إلى الله تعالى توبةً نصوحاً.

وهذا بعضُ ما يحصلُ في زماننا من الكفر العَلَنيِّ، والاستهزاءِ الجَهريِّ باللهِ ورَسولِه، نَسأَلُ اللهَ العَفوَ والعافيَةَ في الدُّنيا والآخِرَة.

وللشُعراءِ الحَداثيِّين نصيبٌ وافِرٌ من السُّخريَةِ الرَّعناءَ، والتي فيها تطاولٌ

على ربِّ الأرض والسماء، وفي مقدِّمة هؤلاء:

○ **عبدُ العَزيز المقالح الذي يعُدُّونه من روَّاد الحَداثيين، يقول:**

[صارَ اللهُ رماداً، صمتاً رعباً في كف الجلادين، حقلاً ينبُتُ سُبحاتٍ وعمائمَ بين الرَّبِّ الأُغنيةِ الثروَةِ والرَّبِّ القادِمِ من هوليوود، كان اللهُ قديماً حُباً، وكان نهاراً في الليل أغنيةً تغسِلُ بالأَمطار الخَضراء تجاعيدَ الأرض][1].

○ **الشيوعيُّ الحداثيُّ عبدُ الوَهَّابِ البَياتيُّ، يقول:**

[اللهُ في مدينتي يبيعُه اليهود، الله في مدينتي مشرَّدٌ طريد، أراده الغزاةُ أن يكونَ لهم أجيراً شاعراً قَوَّاداً، يخدعُ في قيثارةِ المَذهب العبادَ لكنَّه أصيبَ بالجنون، لأنَّه أرادَ أن يصونَ زنابِقَ الحقولِ من جرادِهم أراد أن يكون..][2].

○ **شاعرُ الخَنا نزارُ قبَّانيُّ، يقولُ في قَصيدةٍ بعنوان "أصهارُ الله":**

[وهل غَلاءُ الفولِ والحُمُّصِ والطُّرشيِّ والجرجير شأنٌ من شؤون الله ؟!][3].

[يا إلهي ... إن تكُن رَبَّاً حَقيقيَّاً فَدَعنا عاشقينا][4].

○ **الشاعرُ الشيوعيُّ محمود درويش يقول :**

[اقرأ باسم الفِدائي الذي خَلقا ..... خَلَقَ مِن جَزمةٍ أُفُقا][5].

---

(١) المجلة العربية: عدد شعبان ١٤٠٥ هـ(نقلاً عن كتاب الحداثة في ميزان الإسلام لعوض القرني ص ٨٦).

(٢) ديوانه كلمات لا تموت : ص ٥٢٦ (نقلاً عن كتاب الحداثة للقرني ص ٩٣) .

(٣) مجلة الناقد : العدد ١٣ سنة ١٩٨٩ م .

(٤) الأعمال الشعرية الكاملة (٦٥/٢) طبعة ١٩٨٣ م بيروت .

(٥) سمعتُ ذلك منه في مهرجان عُقِدَ في (عمان) سنة ١٩٨٥م.

وقال: [نامي فعينُ الله نائمةٌ عنا وأَسرابُ الشحارير][1].

وإذا نَظَرنا إلى ما يقَعُ من القَومِ في غيرِ الشِّعرِ والأَدَب، وجَدنا ما لا يُمكِـنُ حَصرُهُ مِن الصُّوَرِ والأَمثِلَةِ، ومن ذلك:

- ما يفعلُهُ بعضُ ذوي الصنائِعِ والباعَةُ من كتابَـةِ بَعـضِ الآيـاتِ القُرآنيَّـةِ على دَكاكينِهم للدِّعايَةِ ولَفتِ الانتباه ! ككتابَةِ بَعضِ الخَيَّـاطِينَ قولـه تعـالى: (وكلَّ شيءٍ فصَّلناهُ تَفصيلا)!! وكتابَةُ الحلاَّقينَ على واجِهَةِ الصالوناتِ قولَهُ تعالى: (وجوهٌ يومَئِذٍ ناعِمَة) ! وأَغلَظُ من ذلك ما كـان يحمِـلُ معنـىً قبيحـاً، ككتابة أَحَدِ باعَةِ عَجَلاتِ السيَّاراتِ فَوقَ بـابِ دُكَّانِـهِ (خُلِـقَ الإنسـانُ مـن عَجَل)!!
- كم سَمِعنا مَن يقولُ وهوَ يُريدُ إسكاتَ مَن يُجادِلُـه: "صَـلِّ علـى كـوم أو كَمشَة أنبياء" !!
- حذاؤهُ كبيرٌ ، فيُقالُ له: حِذاؤكَ مثلُ سفينَةِ نوح !!

مَن هو نوحٌ ؟! هل يستشعِرُ هؤلاءِ أنَّه نبيٌّ من أُولي العَزمِ مِن الرُّسُل؟!!

وهل استشعروا أنَّ السفينةَ جَرَت بحفظِ اللهِ تعالى وعِنايته؟!

قال تعالى عنها: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]

- وكم سمِعنا من يُهَوِّنُ من قدْرِ الصلاة فيقـول: (اهبـدْ) أو (غُـزَّ) أو (طُـقَّ) ركعتين !!

---

(١) ديوانه ص ٢٤ الناشر : دار العودة - بيروت .

وكم سمِعنا من يَحُطُّ من قَدْرِ الدُّعاء فيقولُ: (اسلخْهُ دعاءً) أو (سَلَخَهُ دعـاءً فأرداهُ صريعاً)....إلخ.

وهذا غيضٌ من فيضٍ، وقليلٌ من كثيرٍ، نقَلتُهُ على سَبيلِ التمثيلِ فحَسْبُ، واللهُ المستعان.

الاستهزاء في الإعلام الفاسد

لقد عمِلَ الإعلامُ العَلمانيُّ لعقودٍ على تشويهِ صورةِ الصالحين عَبْرَ وسائِلِه المختَلِفَة، وقد أَظهَروا الشخصياتِ "الإسلامية" المحترَمَة، كالقاضي والإمام والمجاهد والمؤذن الشرعيِّ، بصورة مَسخٍ، تثيرُ السُّخريَةَ والضحكَ، فلا بدَّ أن يكون معتوهاً، وأن يكون فيه عيبٌ خِلقيٌّ، كالحوَل مثلاً ! ويتكلَّم بالعربيةِ الفُصحى، ويقولُ: (تباًّ لكم يا قوم ! اتَّقوا اللهَ يا قوم !) وقد يُضربُ بالنِّعال والأَحذيَةِ والطماطِم، وهكذا، ليُسقِطوا هذه الشخصيات المحترَمَةَ من أعيُنِ الناس، ويكرِّسوا عَبْرَ التَّكرار في وَعي النَّاس، أنَّ أصحابَ هذه الصورَةِ هُم المتَخلِّفون الرجعيّون الظلاميُّون، لأنَّهم مُرتَبطون بشَكلٍ أو بآخرَ بالدين!!

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨]

ومن أشنَعِ صورِ الاستهزاءِ برسول الله ﷺ ما رَسَمَهُ رسَّامُ الكاريكاتير المعروفُ، في صحيفة "الأهرام" حيثُ رسَمَ صورةً هزليَّةً صوَّرَ فيها رجلاً بدوياً يرمزُ به إلى رسول الله ﷺ، يركَبُ حِماراً في وَضعٍ مقلوبٍ ليكونَ رَمزًا للرجعيَّةِ، وفي أرضيَّةِ الصورةِ ديكٌ وتِسعُ دَجاجاتٍ، وعنوان الصورةِ هو"محمَّد أفندي جوز التسعة"[1].

○ نشَرَتْ إحدى الصُّحُف صورةً "كاريكاتيرية" لشيخٍ يلبَسُ الجبَّة والعمامة، وله لحيةٌ عظيمةٌ، وملامِحُ وجهِهِ تعكِسُ الشَّرَّ والغضَبَ وبيده سِلاحٌ ــ

(١) ذكر ذلك الأستاذ محمد قطب في "واقعنا المعاصر" ص٣٥٨.

رشاشة ـ وأمامَهُ جمعٌ من النساء والأطفال يتساقطون على الأرض من الرصاص، وفي أسفل الصورة تعليقٌ يقول (الإسلامُ هو الحلُّ)!

- يسألُ أَحَدُهم: مَن يدري أينَ سيكونُ مصيرُ الفلسطينيين يومَ القيامة؟ في الجنَّةِ أم في النار؟ وعندما يفرغُ النَّاسُ من إجاباتهم وتوقُّعاتهم يقولُ ضاحكاً:

"ستُبنى لهم مُخيَّماتٌ في أرض المحشَر" !

- وكم من عرضٍ (تلفزيونيٍّ) سَخِروا فيه من الصحابَةِ الأَجِلاَّء، والعلماء الفضلاء، فتراهم يعرضون الصحابةَ بصورةٍ مشوَّهة، ونواياهم الخبيثَةُ في ذلك معلومَةٌ مكشوفَةٌ، وهذا التشويهُ هو جزءٌ لا يتجَزَّأُ من خِطَّة الأَعداءِ بغزوهم الفكريِّ لديار المسلمين، فالصحابيُّ الجَليلُ الذي تكونُ صورتُه عظيمَةً في أذهانِ الناس، يُمَثِّلُ شخصيَّتَه مَن هو فاسِقٌ فاجِرٌ، قد ظهَرَ في مشاهِدَ فاضِحَةٍ خليعةٍ في عروض أخرى ! فتنطبعُ صورَةُ هذا المُمَثِّلِ في الأَذهان، فإذا ما ذُكِرَ اسمُ الصحابيِّ الجليلِ فلا يستحضِرُ الذِّهنُ غيرَها.

ويُصَوِّرون الصحابةَ حليقي اللِّحى أو أَنَّها- ديكور- محلوقةٌ إلا الذَّقن، ويلبسونَ الثِّيابَ المنقوشَةَ المزَخرَفَةَ المُذَهَّبَةَ، ما يجعَلُهُ أَشبَهَ بالنِّساءِ منه بالرِّجال، وترى هذا الصحابيَّ الجليلَ يقعُ في حُبِّ امرأَةٍ جميلةٍ من الصحابياتِ الشريفات الطاهرات، تشغَلُ فِكرَهُ ليلَ نهارَ، ويتواعَدُ معَها عندَ عَينِ الماءِ، وكأَنَّها قَصَصُ عِشقٍ وغَرام.

ويُظهرون الصَّحابياتِ والعابدات الصالحات، يرتَدين الحِجابَ على الطراز العَصريِّ الحديث، مِنديلُها الوَرديُّ يُغَطِّي مؤخَّرَةَ رأسِها فقط، وضفيرتاها مُتدلِّيتان على صدرها المُجَسَّمِ من ضيق الثِّيابِ، كاشِفَةً صَدرَها ونحرَها، ليَبرُقَ فيه العِقدُ المُنضَّدُ، والزينةُ والحُليُّ تُثقِلُها، قد دقَّقَت حاجِبَيها وملأَت وجهَها بأنواعِ الأَصباغِ ومَوادِّ التجميل، وكُلُّها ميوعَةٌ وميولَةٌ، تُخالِطُ الرِّجالَ وتُصافِحُهُم وتُضاحِكُهم، ثمَّ تقِفُ على الحصيرِ لتُصَلِّيَ وتُناجيَ الجليلَ، ثمَّ ترفَعُ يدَيها وتقولُ بصوتِها المُتَكَسِّرِ الرَّقيقِ: يا ربُّ يا ربُّ !!

صورٌ من السخرية من الحديث النبوي الشريف ومن السنة عموماً

ولحديثِ النبيِّ ﷺ مِن هَزلِ القَومِ نَصيبٌ، كما هو الحالُ مع القُرآنِ الكريم، فلم تسلَم السنَّةُ المُطَهَّرةُ من تلاعُبِهِم كذلك، فلم يُقيموا لها ولا لصاحبها ﷺ الوزنَ الذي تستَحِقُّ.

- قيلَ لأَحَدِ الدُّعاةِ الكِبار: هذا الحديثُ الذي رويتَهُ في مُحاضَرَتِكَ ضَعيفٌ! فأُحرِجَ من ذلك فضَحِك، ثمَّ قال: هَلاَّ أطعمتَهُ شَعيراً؟!!

ويقولون عن روايةٍ مكذوبَةٍ: حَديثٌ موضوعٌ رواهُ مَفجوعٌ !!

- ركِبَ المشايخُ في الحافِلَةِ الصغيرةِ فاكتَظَّت بهم لأَنَّ عدَدَهُم كان كبيرًا، فقالَ أَحَدُهم: أَطَّت الحافِلَةُ وَحُقَّ لها أن تَئِطَّ !!
- دخَلَ الوَلَدُ على أبيهِ في المسجدِ وهو جالِسٌ بينَ المصَلِّين بعدَ انقِضاءِ الصَّلاةِ صارخاً: أبتاهُ أمِّي تُريدُك، فاستأذَنَ الرجُلُ وقامَ مُسرِعاً مع وَلَدِه.

قالَ إمامُ المسجد:

يا إخوان.. "سَلوا لأَخيكُم التَّثبيتَ فإنَّهُ الآنَ يُسأَلُ" !!

- أَخَذَ شَيئًا من مَتاعِ أَخيهِ وأَدخَلَهُ في بيتِهِ مُمازِحاً له، فَعَلِمَ صاحِبُهُ وطالَبَهُ برَدِّه، فقالَ الآخِذُ: لا تَخشَ عليه" فمَن دخَلَ دارَ أَبي سُفيانَ فهوَ آمِنٌ"!!

السخرية بالمؤمنين لأجل إيمانهم وخاصة أهل العلم منهم

والاستهزاءُ بالعُلماءِ له حالتان:

الأولى: أن يكونَ قصدُ المُستهزئِ بالعالِمِ عِلمَهُ وفقهَهُ ودينَهُ، فهـذا كفـرٌ لا مِريَةَ فيه.

قال الشيخُ عليٌّ القاريرحمه الله:

[لأنَّه إذا أبغَضَ العالمَ من غيرِ سبَبٍ دُنيويٍّ أو أخرَويٍّ، فيكون بغضُه لعلمِ الشريعة، فلا شكَّ في كُفرِ مَن أنكرَهُ فضلاً عمَّن أبغَضَه][1].

وقال أيضاً:

[ونقَلَ الأُستاذُ نجمُ الدينِ الكنـدَريُّ بسـمَرقَند: مـن تشـبَّهَ بالعـالِم علـى وَجـهِ السُّخريَةِ، وأخَذَ الخشَبَةَ ويضربُ الصبيانَ، كَفَـرَ، يعـني لأَنَّ مُعلِّـمَ القُـرآنَ مِـن جُملَةِ عُلماءِ الشريعَةِ، فالاستهزاءُ به وبِعلمِه يكونُ كُفرًا][2].

وجاءَ عن الإمام بدرِ الرَّشيدرحمه الله:

[ومنها: لو رأى الغُزاةَ الذينَ يخرُجون للغَزو، وقال: هؤلاءِ أَكَلَةُ الأَرُزِّ، فقد قيلَ:

---

(١) شرح ألفاظ الكفر ص ٥٥.

(٢) شرح ألفاظ الكفر ص (٥٧ ـ ٥٨).

يُخشى عليه الكفرُ، يعني؛ إن أرادَ به مجرَّدَ إهانَتهم من جِهَةِ طاعَتِهم كَفَرَ، وأمَّا إن قالَ ذلك نَظَرًا إلى عدَمِ تصحيحِ نيَّتِهم وتحسينِ طَويَّتِهم، فلا يكونُ كُفرًا][1].

ونظيرُ ذلك في زماننا ما نسمَعُهُ من الطَّعنِ الصريحِ بأَهلِ الحِسبَة، من هيئةِ الأَمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَر، والسُّخريَةِ منهم بإطلاقِ الأَلقابِ الهَزليةِ عليهم، كقولِ بعضِهم: (جاءَ أعضاءُ شَرِكةِ صَلُّوا)!!

قال العلاَّمَةُ محمَّدُ بنُ إبراهيمَ رحمه الله:

[الذين شأنُهم الاستهزاءُ بأهلِ الدين، هذا قد يصِلُ إلى الكفرِ، الذي يكونُ دَيدَنُه، لا يسمَعُ بأحَدٍ من أهلِ الخَيرِ إلا وتكَلَّمَ فيهم[2]، فهذا لا يكادُ يصدُرُ إلا من مُنافِقٍ، ولهذا أشارَ الوالدُ الشيخُ عبدُ الرحمن بنُ حسن في حاشيته على التوحيد، أنَّه يخشى عليه أن يكون بذلك مُرتَداً، أمَّا كونُه وقَعَ في أمرٍ عظيمٍ ووقَعَ في نفاقٍ بارزٍ، فهذا واضِحٌ، وليس المُرادُ مَن يكونُ بينَه وبينَهُم شَحناءُ دونَ بقيَّةِ أهلِ الخَيرِ، وهو من الأمور المُحرَّمة][3].

---

(١) شرح بدر الرشيد (٣٥ـ ٣٦).

(٢) كقول كثير من هؤلاء: "أنا أكرهُ الشيوخ " !! هكذا بإطلاق، أي: إنَّ الألف واللام للجنس لا للعهد !!

(٣) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/١٧٥ ـ ١٧٦).

الواجبُ على سامِع الاستهزاء

إنَّ الشريعَةَ لم تَدَع هذه المسأَلَةَ دون بَيان، بل جاءَت النصوصُ العَديدةُ في بيان ما يجبُ على من يحضَرُ مَجلِساً يقَعُ فيه الاستهزاءُ، من القول والفعل والاعتقاد!

أولاً: الإنكارُ باللسان:

وقد صحَّ في السنَّة قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ فيمَن شَهِدَ مُنكراً:

(مَن رأى منكم مُنكَراً فليُغيِّرْهُ بيدِه، فإن لم يستَطِع فبلسانِه، فإن لم يستَطِع فبقَلبه وذلك أضعَفُ الإيمان)[1].

ولا شكَّ أنَّ هذا الحديثَ يشمَلُ جميعَ المنكَراتِ بلا استثناءٍ، وأَنَّ الاستهزاءَ بالدين من أعظَم المنكرات، فمن جلَسَ مَجلساً سَمِعَ فيه تعريضاً بالدين، وهزلاً بالمُقَدَّسات، واستِهزاءً بالآيات، فالواجبُ الأَوَّلُ في حَقِّه هو الإنكارُ باللسان، بحسب القُدرة والإمكان، وَفقَ القواعدِ الشرعية في إنكار المنكر، وإن عَلِمَ فيهم خَيرًا وصلاحًا فواجِبُ اللسان هنا الوعظُ والنُصحُ والتذكيرُ بخطورَةِ هذا الجُرم، وأَنَّهُ من نواقِضِ الإيمان.

ثانياً: الإعراضُ عنهُم وتركُ مُجالسَتِهم:

وقد ورَدَت نصوصٌ خاصَّة في مجالس الاستهزاءِ بالدين والخَوضِ في آياتِ

---

(١) رواه مسلم(٥٠/١).

اللهِ بوجوبِ تَركِها واعتِزالها، وأَنَّ مـن لم يفعَـل ذلـك مـع القُـدرَةِ فهـو منـافِقٌ، وشريكٌ للخائِضينَ في باطِلِهم، وأَنَّهُ يستَحِقُّ العُقوبَـةَ مِـثلَهُم، قـالَ اللهُ تعـالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء:١٤٠]

قال الشيخُ حَمَدُ بنُ عَتيقٍ رحمه الله(١):

[وفي أجوبَةِ آلِ الشَّيخِ رحمهم اللهُ تعالى، لَمَّا سُئلوا عن هذه الآية، وعن قوله ﷺ: **(مَن جامَعَ المشرِكَ أو سَكَنَ معَه فهو مِثلُه)**(٢)، قالوا: الجوابُ، إنَّ الآيَةَ على ظاهرِها، أنَّ الرجلَ إذا سَمِعَ آياتِ الله يُكفَرُ بها ويُستَهزأُ بها، فجلَسَ عند الكافرينَ المستهزئين بآياتِ الله، من غير إكراهٍ ولا إنكارٍ، ولا قيامٍ عنهُم، حتَّى يخوضوا في حديثٍ غيره، فهو كافرٌ مثلُهم وإن لم يفعل فعلَهم، لأنَّ ذلك يتضمَّنُ الرِّضا بالكفر، والرِّضا بالكُفر كفرٌ، وبهذهِ الآيَةِ ونحوِها استَدَلَّ العُلماءُ على أنَّ الرِّضا بالذَّنبِ كفِعلِهِ، فإن ادَّعَى أنَّهُ يكرَهُ ذلك بقلبه، لم يُقبَلْ منهُ لأَنَّ الحُكمَ بالظاهِرِ، وهو قد أَظهَرَ الكفرَ، فيكونُ كافراً](٣).

---

(١) من علماء نجد الكبار، ت ١٣٠١ هـ.

(٢) رواه أبو داوود، والحاكم، وحسنه الألباني(السلسلة الصحيحة) برقم٢٣٣٠.

(٣) سبيل النجاة والفِكاك: ص ٥٤.

ثالثاً: البراءَةُ منهم وتركُ موالاتهم:

قال اللهُ تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٧].

فالجلوسُ مع المُستَهزئينَ وعدَمُ النَّكيرِ عَليهم أو الإعراضِ عنهم يدُلُّ على الرِّضَى والقَبول بصَنيعِهِم، والانبساطِ لحَديثِهم، ولو سَمِعَ المرءُ في مَجلِسٍ ما يَسوؤهُ فلا يُتَصَوَّرُ منه مع العَجزِ إلا مُغادَرَةُ المكان، كحَدٍّ أدنى في الدِّلالَةِ على الرَّفضِ والكُره، أمَّا إذا انبَسَطَ لذلك الخَوضِ وَظَهَرَ عليه أَثَرُهُ مِن الضَّحِكِ والتبَسُّم، فذلك هوَ المحظورُ الأَعظَمُ !

وقد تقدَّم معَنا قولُ أبي المعالي الحنفيِّ رحمه الله:

[ومنها أنَّ مَن تكلَّمَ بكلمةٍ توجِبُ الكفرَ فضُحِكَ من ذلك، كفَرَ المُضحِكُ والضاحِكُ أيضًا، ولو تكَلَّمَ بها مُذكِّرٌ ـ أي واعِظٌ ـ وقيلَ منهُ القَومُ، كفَروا جميعًا][1].

(١) رسالة في ألفاظ الكفر، لأبي المعالي الحنفي. نقلاً عن "الجامع" في ألفاظ الكفر : ص٤٢٩

البواعثُ على الاستهزاء

إنَّ أسبابَ وقوعِ الناس في هذا الفعلِ القَبيحِ مُتَعَدِّدَةٌ، وهيَ مِن حَيثُ الجُملَةُ، إمَّا دَوافِعُ نفسيَّةٌ، أو دَوافِعُ عَقَديَّةٌ، وأَهَمُّ تلكَ الدَّوافِعِ ما يلي:

o **الكِبرُ:**

فالمتكبِّرُ ينُظرُ إلى الناسِ مِن عَلٍ، ويَرَى نفسَهُ فَوقَهُم، ولذا فهو مُستَخِفٌّ بهم، مُزدرٍ لهم، كما قالَ الصادقُ المصدوقُ ﷺ:

(الكبرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ الناسِ)[1].

o **العداوةُ الدينيَّةُ:**

وهذا من أَعظَمِ أَسبابِ كُفرِ قُرَيشٍ، فقَد حَكَى القُرآنُ عنهُم قولَهُم:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

يقولُ ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

[فاستَهزأوا بالرسول ﷺ لما نَهاهُم عن الشركِ، ومازالَ المشركون يسُبُّونَ الأَنبياءَ ويَصفونَهُم بالسفَاهَةِ والضَّلالِ والجنونِ، إذا دَعَوهُم إلى التَّوحيد، لما في أنفُسِهِم من عَظيم الشِّركِ، وهكذا تجِدُ مَن فيه شَبَهٌ منهُم إذا رأَى مَن يَدعو إلى التوحيدِ استَهزَأَ بذلك، لما عِندَهُ مِن الشِّركِ][2].

o **إثباتُ الذاتِ ولَفتُ الانتباه:**

وهذا الباعِثُ -في نَظَري- هوَ الأَهَمُّ في مَوضوعِ بَحثِنا، حيثُ نَتناوَلُ مُشكِلَ الهَزلِ عندَ "الصالحين" وهُم أَهلُ المساجدِ، وحَفَظَةُ القُرآن، والدعاةُ إلى الله، فهم يحبُّون دينَهم ويحبُّونَ نبيَّهُم وكِتابَهُم، ولكنَّ الإيمانَ ليسَ مَبناهُ على

---

(١) رواه مسلم: ٩١.

(٢) "دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية" (٣٣٢/٣) جمع الدكتور محمد الجليند.

المحبَّةِ فقَط، بل لا بُدَّ من التعظيم لِيَصحَّ الإيمانُ، وقد تقدَّمَ الحديثُ عن ذلك، وقد ذكرَ بعضُ الأئِمَّةِ أنَّ مَن عبَدَ الله بالحُبِّ فهو زنديق !![1].

إنَّ بعضَ الناسِ قد يفعَلُ العَجائِبَ لِلَفْتِ الانتباه، ولديه شَهوَةٌ نَفسانيةٌ عارِمَةٌ لإضحاكِ الناسِ، ليستَحوذَ بذلك على إعجابهم وأَسْرِ قلوبهم، ويُقالَ: فلانٌ خفيفُ الظِلِّ، وروحُهُ مَرِحَةٌ، ونَحو ذلك، فيجعلَ من أولويّاتِه إضحاكَ الآخَرين لاستِقطابهم واستِمالَةِ قلوبهم!

وقد انتَهَجَ بعضُ العاملين في حَقلِ الدعوةِ من الصالحين هذا الأسلوبَ الفُكاهيَّ، بِذرائِعَ عَديدةٍ، منها: جَذبُ العُصاةِ وتحبيبُهم في الدين، ومنها إعطاءُ انطِباعٍ تَصحيحيٍّ عن شخصيَّةِ المُلتزِمِ التي يُظهِرُها الأعداءُ بمَظهَرِ الانغِلاقِ وغِلظَةِ الطَبعِ، وإلى آخرِ ذلك من الذَّرائعِ الجاهزة، والحِيَلِ النفسيةِ البائسةِ، والتي أدَّتْ ببَعضِهم إلى الإغراقِ في الهَزلِ وإضحاكِ الناس إلى درجةٍ صارَ فيها الداعيةُ أشبَهَ بالمُهَرِّجِ !! وصارَت مُحاضَرَةُ فُلانٍ الفُلانيِّ عبارةً عن مَسرَحيَّةٍ (كوميدية)، يأتي إليها مَن يأتي، لا بقصدِ العلمِ والفائِدَةِ، بل بقَصدِ المُتعَةِ والمَرَحِ والفُكاهَة !!

لقد اقترنَت هذه الصِّفَةُ ببعضِ هؤلاءِ الدُّعاةِ، حتَّى أَنَّه لم يعُد يستطيع أن يغيِّرَ من نَمَط إلقائِه إلى نوعٍ من الجِدِّيةِ، حتَّى في المناسبات التي تَتَطَلَّبُ قدرًا منها؛ لأَنَّه سيخسَرُ جمهورَهُ العَريضَ لو فَعَل، فالدعاةُ غيرُهُ كثيرٌ، وهو لا يتميَّزُ عنهم بعِلمٍ ولا مَعرِفَةٍ، فليكُن التميُّزُ إذن بالفُكاهَة، وبأَيِّ ثَمنٍ! حتَّى لو كانَ

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية: ٦٧، ومعنى (بالحبِّ): أي بحبِّ الله وحده بلا تعظيم ولا إجلال ولا خشية.

الثَّمَنُ هو المُجازَفَةَ في الوقوعِ بناقضٍ من نواقِضِ الإسلام، والتي لا يَعوزُهُ كثيرُ تَعريفٍ بها !!

إنَّ سَقَطاتِ هؤلاء لا تكادُ تخلو منها مُحاضرَةٌ، فتارَةً بذكر "نكتة" فيها مساسٌ بالدين، خُذ على سبيل المثال، مقطَعَ "الفيديو" المنتشِر في مُعظَم الهواتِفِ الجوَّالة لدى الشباب، من محاضرَةٍ للداعية الشيخ فُلان الفلانيِّ، وهو يحكي طُرفَةً عن حادِثَةٍ وقَعَتْ لرجُلٍ "بنغاليٍّ" في زِحامِ الحَجِّ، فأُغشيَ عليه ونُقِلَ إلى المَشفى، وأَنَّهُ فتَحَ عَينَيه بعدَ ذلك فَرأَى كُلَّ شَيءٍ من حَولِهِ أَبيَضَ، فظَنَّ أَنَّهُ قَد ماتَ وهو الآنَ في الجَنَّة !!

وبينما هو كذلك إذ دَخَلَ عليه بعضُ المُمَرِّضات، فظَنَّهُنَّ الحورَ العينَ قد أَقبَلْنَ عليه !!

فقال لَهُنَّ: الزَمْنَ الدَّورَ، وتقدَّمْنَ واحدة واحدة !!!

وشيخ آخر من الدعاة يحكي للناس في المحاضرة قصَّةَ رجلٍ له أغنام، كان كلَّما صلى ركعتين ماتت شاة ! فشاهد شاةً هائجةً تقفزُ بين جماعتها فخاطبها قائلاً: هل ستسكنين أم أقوم أصلي ركعتين؟!

وتارةً بالمحاكاةِ الجسدية، وتغير نبرَةِ الصوتِ ومَلامِح الوَجهِ عند الحديث بطريقة المهرِّجين الساخِرَة، وقد كان آخرَ ما سمعتُ من أَحَدِ هؤلاء المشاهير، سؤالُه أَحَدَ الشباب الحاضرين، ماذا لو رجَعَتَ إلى البيتِ بعدَ سماعِكَ لمحاضَرَةٍ إيمانيَّةٍ زادَ بها لديكَ منسوبُ الإيمانِ والتَّقوى حتَّى صارَ يخرجُ من أذنيك![1]

---

(١) تأمَّلْ فيما قاله الإمامُ بدر الدين الرشيد رحمه الله:

[لو قال لعابد: مَهلاً أو اجلس حتَّى لا تتجاوز الجَنَّةَ، أو تقَعَ وراءَ الجنَّة، أي بزيادة الطاعة والعبادة، كَفَرَ، أي : لاستهزائه]. ص ٦٨ .

فوجَدْتَ أخَواتكَ يجلِسنَ أمامَ الشاشَةِ يُتابعنَ مُسَلسَلاتٍ أَجنَبيَّـةً فاضِـحةً، مـاذا كنتَ ستفعَل؟

قال أحدُهُم: أقولُ لهنَّ اتقينَ اللهَ، فهذا حَرامٌ ولا يجوز.

قال الشيخُ : هل تقولُ لهُنَّ ـ وراحَ يصرَخُ ويمدُّ صَوتَهُ ـ اتقوا اللهَ ! تَبًّا لكم يا قَوم ؟! اجلس لقد خرَّبتها .

وبعدَها ذكَرَ شابًا يقولُ لوالِدِه وهو يَضربُهُ بالعِقال" أَحَدٌ أَحَد، أَحَدٌ أَحَـد" وهو يُحرِّكُ كَتِفَيهِ مَعَ الكلامِ، محاكياً ذلـك الشـابَّ، بطَريقَـةٍ جَعَلَـت الضَّـحِكَ مُتواصِلاً لا يكادُ ينقَطِع !!!

فيا للغَفلة !

مَهلاً يا وَرَثَةَ الأَنبياءِ ! مَهلاً.. إنَّكُم أئِمَةٌ يُقتَدى بكُم !!

هذه الكلِمَةُ قالها الفُضَيلُ بنُ عياض رحمه الله لبعض أصحاب الحـديث، وقـد ضجِرَ منهم إذ رآهـم يُكثِرون من الضَّحِكِ، ويحِبُّون الدَّعَةَ والمَرَح[1].

وهذه النصيحَةُ حَريٌّ بها أَن يسمَعَها أحدُ الدُّعاةِ المرمـوقين، ولهـم حضـورٌ بارزٌ في مجالِ الدعوةِ والتعليم، وفي الوقت نفسِهِ، لـهُ سَـقَطاتٌ كلاميَّـةٌ مُنكَـرَةٌ، وليس آخِرَها سقطتُهُ في "سورة التُفَّاح"

هكذا قالَ بـالحَرفِ مـع ابتسـامةٍ عَريضَـةٍ بـدَتْ لهـا نواجِـذُه "هـذه سـورَةُ التُفَّاح"!!

---

(١) حلية الأولياء(٨/١٠٠)، السير(٨/٤٣٥).

أمَّا الجمهور، وأظنُّهم كانوا بالأُلوف، فقد ضَجَّتْ القاعَةُ بقَهقَهَتِهم، وقـالَ على الفَور "أستغفِرُ الله" لماذا تستغفرُ أيُّها الداعيةُ المِقدام؟!

هل شعَرْتَ أنَّكَ اقتَرَفتَ ذَنباً بكلمتك تلك؟

أَكادُ أجزِمُ بذلك، فأنتَ من أَعلَـم النـاس بعَظَمَـةِ القُـرآن، وحُرمَـةِ آياتِـهِ وسوَره، وأنَّهُ كلامُ الله، وكلامُهُ صِفَةٌ من صِـفاتِهِ، وصِـفاتُهُ مُنَزَّهَـةٌ عـن العَبَـثِ واللَّعِب بها، وقد دَرَسـتَ ودرَّسـتَ نـواقضَ الإسـلامِ العَشَـرة، ومنهـا نـاقض الاستهزاء بالدين !

ولعلكَ أدركتَ أنَّ تسميتَك لسورةٍ بهذا الاسم "التفاح" فيه هَزْلٌ ظـاهرٌ، وامتِهانٌ مُنكَرٌ لِعَظَمةِ السوَر القُرآنيةِ الكريمةِ، ولعلَّك تذكَّرتَ قولَه تعالى:﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣-١٤] فقلتَ:"أستغفرُ الله" !!

إنَّه لا عُذرَ لك بأنَّ السياقَ كان في بابِ إظهارِ عظَمَةِ القُرآن، وأنَّ الأعاجِمَ يُدركون الفرقَ بين القُرآن وغيره وإن لم يفهَموا المعنى، وهذا من إعجاز القُـرآن ! لأَنَّكَ أردتَ أن تُظهِرَ عظَمَةَ القُرآنِ نَظَريًا، فأَسقَطتَ هيبَتَهُ عندَ النَّاس عَمَليًـا، بجَعلِكَ إيَّاهُ مادَّةً للهَزَلِ والضَّحِكِ، فليتَكَ سَكَتَّ فنَجَوتَ، لا لك ولا عليك.

الجدِّيّة وعلوُّ الهِمّة...الداءُ والدواء!

أعتقدُ أنَّ واحِدًا من أسبابِ هذه الآفَةِ هي ثقافَةُ المجتَمَعات المعاصِرَةِ عموماً على كثرَةَ المِزاح واللامُبالاة، وغيابُ الجِدِّيةِ أو ضَعفُها في حياتِهم، فيكونُ نشرُ ثقافَةِ الجِدِّيَّة، وعلوِّ الهمَّة، وتربيَةُ أبناءِ الأُمَّةِ على معالي الأُمور، جُزءاً مُهِّماً من العِلاج الذي نَصبوا إليه، ولا يَعني هذا بحال من الأَحوال الدَّعوَةَ إلى التشدُّدِ مع النفس، ومُخالَفَةِ الطَّبع، والغِلظَةِ والجَفاءِ معً الناس، وعُبوس الوَجهِ، وتَقطيبِ الحاجبين !! فهذا طَرَفٌ مذمومٌ آخَرُ يُقابلُ الطرَفَ الأوَّلَ، وخيرُ الأمور أوسَطُها وأَعدَلُها، والحقُّ دائماً بين الإفراط والتفريط، واللهُ الموفِّق.

ما المقصودُ بالجِدِّية ؟ وما دَليلُها ؟

قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾[البقرة:٦٣] وقالَ سُبحانه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم:١٢]

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ:

(لو تَعلمونَ ما أعلَمُ لضَحِكتُم قَليلاً ولَبَكيتُم كثيراً)[١]

قال الإمامُ ابنُ حَجَر العَسقلانيُّ رحمه الله:

[المرادُ بالعِلم هنا ما يتعلَّقُ بعَظَمَةِ اللهِ وانتقامِهِ ممَّن يَعصيه، والأَهوالِ التي تقَعُ عندَ النَّزعِ والموتِ وفي القَبرِ ويومَ القيامة][٢].

(١) رواه البخاري ١٠٤٤، ومسلم ٤٦٢

(٢) فتح الباري (١١/٣١٩).

وقال عليه الصلاةُ والسلام:

(**لا تُكثِروا الضَحِكَ، فإنَّ الضَحِكَ يُميتُ القلبَ**)[١].

قال الإمامُ الحسَنُ البَصريُّ رحمه الله: [حقيقٌ لمن كانَ الموتُ مَوعِدَه، والقَبرُ مورِدَه، والحِسابُ مَشهَدَه، أن يطولَ بُكاؤه وحُزنُه][٢].

وعن عائِشَةَ رضي الله عنها **قالَت**: (ما رأَيتُ رَسولَ اللهِ ﷺ مُستَجمِعاً قَطُّ ضاحِكاً حتَّى تُرى لهواتُه[٣]، إنما كان يتَبَسَّم)[٤].

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قال:

(من أذنَبَ وهو يضحَكُ دَخَلَ النارَ وهو يَبكي)[٥].

قد رشَّحوكَ لأَمرٍ لو فَطِنتَ له ... فاربأ بنَفسِكَ أَن تَرعى معَ الهَمَلِ

(١) رواه البخاري في "الأدب المفرد"، وجوَّده الألبانيُّ في " السلسلة الصحيحة " برقم: ٥٠٦

(٢) (الحدائق) لابن الجوزي (٢١٦/٣).

(٣) اللهوات: بفتح أوَّليه، جمع (لهاة) وهي اللحمة التي في أقصى الفَم.

(٤) رواه البخاري ٦٠٩٢، ومسلم ٨٩٩.

(٥) الفردوس بمأثور الخطاب (٥٧٨/٣).

المِزاحُ والضَّحِك في ميزانِ الشرع

قد يظنُّ بعضُهُم مما تقَدَّم أنَّني أذهبُ إلى الانغلاق وسَدِّ باب المزاح بإطلاق ! وليس الأمرُ كذلك، فالمزاح المنضبط بحدوده الشرعية والأدبية أمرٌ مُحَبَّذٌ وممدوح يدلُّ على نفسٍ سويةٍ ومزاجٍ مُعتدلٍ، وطبعٍ مُنفتح...... وقد كان رسول الله ﷺ يمزح، وكان أصحابه يمزحون، وكذا الحال مع العديد من العلماء والصالحين ممن اتَّبعوهم بإحسان.

قال القرطبيُّ رحمه الله **في** تفسيره قوله سبحانه: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾[**البقرة:٦٧**]

[مسألة : في الآية دليلٌ على منع الاستهزاءِ بدين اللهِ ودين المسلمين ومَن يجبُ تعظيمُهُ وأنَّ ذلك جَهلٌ، وصاحبُهُ مُستَحِقٌّ للوعيد وليس المزاحُ من الاستهزاءِ بسبيل ، ألا تَرى أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يمزَحُ والأَئِمَّةُ بَعدَهَ!][1].

قال الغزاليُّ رحمه الله **، في آفات اللسان:**

[الآفَةُ العاشِرَةُ "المزاح": وأصلُهُ مذمومٌ مَنهيٌّ عنهُ إلا قَدرًا يَسيرًا يُستثنى منه، قال ﷺ: **(لا تُمارِ أخاكَ ولا تُمازِحْه)**[2].

فإن قلتَ: المُماراةُ فيها إيذاءٌ لأنَّ فيها تكذيباً للأخِ والصديقِ أو تجهيلاً له، وأمَّا المِزاحُ فمطايبَةٌ، وفيه انبساطٌ وطيبُ قلبٍ فلِمَ ينهى عنه؟!

---

(١) الجامع لأحكام القُرآن/ للقرطبي(١/٤٤٧).

(٢) رواه الترمذي: ١٩٩٥، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وضعفه ابن حجر في (بلوغ المرام: ٤٤٣) ، ووافقه الألباني في (ضعيف الجامع الصغير: ٦٢٧٤).

فاعلم أنَّ المنهيَّ عنهُ الإفراطُ فيه، أو المداوَمةُ عليه.

أمَّا المداومةُ: فلأنَّهُ اشتغالٌ باللَّعِب والهَزلِ فيه، واللَّعِب مباحٌ ولكنَّ المواظَبَةَ عليه مذمومةٌ، وأمَّا الإفراطُ فيه فإنَّه يورثُ كثرَةَ الضَّحِكِ، وكثرَةُ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ، وتورثُ الضَّغينةَ في بعضِ الأحوالِ، وتُسقِطُ المَهابَةَ والوَقارَ، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يُذَمُّ،

كما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: (**إنِّي لأَمزَحُ ولا أقولُ إلا حَقًّا**)(١).

إلا أنَّ مِثلَه يَقدِرُ على أن يَمزَحَ ولا يقولَ إلاَّ حَقًّا، وأمَّا غيرُه إذا فتحَ بابَ المِزاحِ، كان غرَضُه أن يُضحِكَ الناسَ كيفما كانَ.

وقد قال رسولُ الله ﷺ:

(**إنَّ الرجُلَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحكُ بها جُلساءَه يهوى في النار أبعَدَ من الثُريّا**)(٢).

وقال عمر رضي الله عنه:

(مَن كثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيبَتُه، ومَن مَزَحَ استُخِفَّ به، ومَن أكثَرَ من شيءٍ عُرِفَ به، ومَن كثُرَ كلامُه كثُرَ سَقَطُه، ومَن كثُرَ سَقَطُه قلَّ حَياؤُهُ، ومَن قَلَّ حياؤه قلَّ ورَعُه، ومَن قلَّ ورَعُه ماتَ قلبُه).

---

(١) "حديث صحيح"، صحيح الجامع: حديث رقم: ٢٤٩٤

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء (١٤٣/٣)"إسناده حسن"، وحسنه الألباني في (السلسلة الصحيحة : ٥٤٠) ، و(التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان : ٨/ ٢٢٤).

ولأَنَّ الضَّحِكَ يدُلُّ على الغفلَةِ عن الآخِرَة، قال رسولُ الله ﷺ:

(لو تعلمون ما أعلمُ لبكيتُم كثيرًا ولَضحِكتُم قليلاً)[1].

وقالَ رجلٌ لأَخيه: يا أخي هل أتاك أنَّكَ واردُ النارَ؟! قال: نعم، قال: فهل أتاكَ أنَّك خارِجٌ منها ؟! قال: لا، قال: ففيم الضحِكُ؟! قيلَ فما رؤي ضاحكاً حتَّى مات.

وقيلَ أقامَ عطاءُ السُلَميُّ أربعين سنةً لم يضحك[2].

ونظَرَ وهَيبُ بنُ الوَرد إلى قومٍ يَضحكون في عيدِ فِطرٍ فقال: إن كان هؤلاءِ قد غُفِرَ لهم، فما هذا فعلُ الشاكرينَ، وإن كان لم يُغفرْ لهم فما هذا فعلُ الخائفين.

وكان عبدُ الله بنُ أبي يعلى يقول: أتضحكُ ولعلَّ أكفانَك قد خرجَتْ من عندِ القَصَّارِ.

وقال محمدُ بنُ واسِع: إذا رأيتَ في الجنَّةِ رجلاً يَبكي ألستَ تعجبُ من بُكائِه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحكُ في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصيرُ هو أعجبُ منه.

فهذه آفةُ الضحكِ، والمذمومُ منه أن يستغرِقَ ضحكاً، والمحمودُ منه التبَسُّمُ الذي

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) ألاّ يضحك الإنسان ثلاثين سنةً هذا خلاف الطبع والواقِع، وقد ضحِكَ من هو أعلى مقاماً وأجلُّ قدراً !! إلاّ إذا حمَلنا ذلك على معنى الغفلة أو السَّفه أو القهقهة بالضحك، فيكون معقولاً مقبولاً، والله أعلم.

ينكشفُ فيه السِنُّ ولا يُسمَعُ له صوتٌ، وكذلك كان ضحكُ رسولِ اللهِ ﷺ.

وأمَّا أداءُ المِزاحِ إلى سقوطِ الوَقارِ فقد قال عمرُ رضي الله عنه: "من مزَحَ استُخِفَّ به"، وقال محمدُ بنُ المُنكَدِرِ: "قالت لي أمِّي: يا بُنَيَّ، لا تُمازِحِ الصِبيانَ فتهونَ عندهم".

وقال عمَرُ بنُ عبدِ العزيز رحمه الله:

"اتَّقوا اللهَ، وإياكُم والمزاح، فإنَّهُ يورثُ الضَّغينَةَ، ويجُرُّ إلى القَبيحِ، تحدَّثوا بالقُرآن، وتَجالسوا به، فإن ثَقُلَ عليكم فَحَديثٌ حَسَنٌ مِن حديثِ الرجال".

وقال عمرُ رضي الله عنه:

"أتدرون لِمَ سُمِّيَ المِزاحُ مِزاحاً؟ قالوا: لا، قال: لأنَّه أزاحَ صاحِبَهُ عن الحَقِّ".

وقيلَ: "لكلِّ شيءٍ بُذورٌ، وبُذورُ العَداوةِ المزاحُ ".

ويقالُ: "المزاحُ مَسلَبَةٌ للنُهى، مَقطَعَةٌ للأصدقاءِ".

فإن قلتَ: قد نُقِلَ المِزاحُ عن رسولِ الله ﷺ وأصحابِه، فكيفَ يَنهى عنه؟ فأقولُ:

إن قَدِرتَ على ما قَدِرَ عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، وهو أن تمزحَ ولا تقولَ إلا حقاً، ولا تؤذيَ قلباً، ولا تُفرطَ فيه، وتقتصِرَ عليه أحياناً على الندور، فلا حرَجَ عليك فيه، ولكن من الغَلَطِ العظيمِ أن يَتَّخِذَ الإنسانُ المِزاحَ حِرفَةً يواظِبُ عليه، ويفرطُ فيه، ثم يتمسَّكُ بفعلِ الرسول ﷺ، وهو كمَن يدورُ نَهارَهُ معَ الزنوجِ يَنظرُ إليهم وإلى رَقصِهم، ويتمسَّكُ بأنَّ رسولَ الله ﷺ أذِنَ لعائشةَ

في النظرِ إلى رَقصِ الزنوجِ في يومِ عيدٍ، وهو خطأٌ، إذ مِن الصغائرِ ما يَصيرُ كبيرَةً بالإصرارِ، ومِن المُباحاتِ ما يصيرُ صغيرَةً بالإصرارِ، فلا ينبغي أن يُغفَلَ عن هذا، نعم، روى أبو هريرة أنَّهم قالوا: يا رسولَ الله، إنَّكَ تُداعبُنا ! فقال: إنِّي وإن داعبتكم لا أقولُ إلا حَقًّا.

وروي أنَّه كانَ كثيرَ التَّبَسُّمِ[1].

وعن الحسَنِ قال: أَتَت عَجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال لها ﷺ: **(لا يدخُلُ الجنَّةَ عجوزٌ)** فبكتْ، فقال: **(إنَّكِ لَستِ بعجوزٍ يومئذٍ**، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾)[2].

فهذه مُطايَباتٌ يُباح مثلُها على النُّدور لا على الدوام، والمواظَبَةُ عليها هَزَلٌ مذموم وسَبَبٌ للضحِكِ المميتِ للقَلب][3].

معنى الضحك في اللغة :

[هو انبساطُ الوجه حتَّى تظهَرَ الأسنانُ من السُّرور، فإن كان بصَوتٍ وكان بحيثُ يُسمَعُ من بُعدٍ فهو القهقهةُ، وإلا فالضَحِك، وإن كانَ بلا صوتٍ فهو التبسُّم، والتبسُّمُ أوَّلُ مراتبِ الضحِك][4].

(١) "حديث صحيح" عن عبد الله بن الحارث، جزء: قال: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسماً من رسول ﷺ. (صحيح مختصر الشمائل ١٩٤، المشكاة ٥٨٢٩ التحقيق الثاني).

(٢) " حديث صحيح"، السلسلة الصحيحة (٢٩٨٧).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٧ - ١٣١) بتصرف.

(٤) ملخَّص من عدَّة معاجم لغوية ، وبعضها في (فقه اللغة) للثعالبي .

ضوابط المزاح المشروع

من خلال ما تقدَّمَ، نستطيعُ أن نتعرَّفَ على ضَوابِطَ المزاحِ المباحِ، ونُلخِّصُها بما يلي:

أولاً: ألا يقولَ المازحُ إلا صِدقاً

وذلك لأنَّ الكذبَ فيه كالكَذِبِ بغيره، واللهُ تعالى يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة:١١٩].

وقال رسولُ الله ﷺ: **(وإيَّاكم والكَذِب، فإنَّ الكذبَ يَهدي إلى الفُجور، وإنَّ الفُجور يهدي إلى النَّارِ، ولا يَزالُ الرَّجُلُ يكذِبُ ويتَحَرَّى الكذِبَ حتَّى يُكتَبَ عندَ اللهِ كذَّاباً)**[١].

بل ورَدَنا عن النبيِّ ﷺ ما يُفيدُ أنَّ الكذِبَ في المزاح أعظَمُ وأَخطَرُ، وهو قولُهُ ﷺ: **(ويلٌ لِمن تحدَّثَ بحديثٍ لِيُضحِكَ الناسَ فيكذِبه ويلٌ له ويلٌ له)**[٢].

قال المناويُّ: [**(ويلٌ له ويلٌ له)** كرَّرَه إيذانًا بشدَّةِ هلَكَتِه، وذلك لأَنَّ الكَذِبَ وحدَهُ رأسُ كلِّ مذمومٍ، وجماعُ كلِّ فضيحةٍ فإذا انضَمَّ إليه استِجلابُ

---

(١) رواه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

(٢) رواه الترمذي: ٢٣١٥ وقال حديث حسن، وقوى إسناده ابن حجر في (بلوغ المرام/ ٤٤٦)، وقال الألباني في (صحيح الجامع: ٧١٣٦): حسن.

الضَّحِكِ الذي يُميتُ القَلبَ ويجلبُ النِّسيانَ ويورِثُ الرُّعونَةَ كان أَقبَحَ القَبائِح، ومن ثمَّ قالَ الحُكَماءُ: إيرادُ المضحِكاتِ على سبيلِ السُّخفِ نِهايَةُ القَباحَة] [1].

ثانياً : عَدَمُ الإكثارِ منه

فيصدُرُ منه المزاحُ على سبيل النُدرة ، لأنَّ الإكثارَ منه يُذهِبُ المروءَةَ ، ويُسقِطُ الهَيبَةَ والوَقارَ ، ويجلبُ الضَّغينَةَ والأَحقادَ ، وإنَّما ينبغي أن يكونَ مِقدارُ المَزْحِ في الكلام كَمِقدارِ المِلحِ في الطعام، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

(لا تُكثِرِ الضَّحِكَ، فإنَّ كثرَةَ الضَّحِكِ تُميتُ القَلبَ) [2].

وقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه :

[من كثُرَ ضَحِكُه قلَّتْ هَيبتُه، ومَن مَزَحَ استُخِفَّ به] [3].

قال سعيدُ بنُ العاص رضي الله عنه **لابنه:**

[اقتصِدْ في مِزاحِك، فإنَّ الإفراطَ فيه يُذهِبُ البَهاءَ، ويجرِّئُ عليكَ السُّفَهاء] [4].

(١) فيض القدير: (٣٦٨/٦).

(٢) حسنه الألباني في: صحيح الجامع: (٧٤٣٥)، السلسلة الصحيحة:٩٣٠ .

(٣) صحيح الجامع : رقم ٨٦

(٤) "أدب الدنيا والدين" للماوردي، ص٢٣٢.

وقال الإمامُ الراشِدُ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز رحمه الله:

[اتَّقوا المزاحَ، فإنَّهُ حُمقَةٌ تورِثُ الضَّغينَة][1].

قال الإمامُ النَّوَويُّ رحمه الله:

[المزاحُ المنهيُّ عنه هو الذي فيه إفراطٌ، ويُداوَمُ عليه، فإنَّه يورِثُ الضَّحِكَ وقسوَةَ القلبِ، ويَشغَلُ عن ذِكرِ الله تعالى، ويؤولُ في كثيرٍ من الأوقاتِ إلى الإيذاء، ويورثُ الأحقادَ، ويُسقِطُ المَهابَةَ والوَقارَ، فأمَّا مَن سَلِمَ من هذهِ الأمورِ فهوَ المُباحُ الذي كانَ رسولُ الله ﷺ يفعلُه][2].

ثالثاً : ألا يكونَ فيه ترويعٌ لأَحَد

والترويعُ يكونُ باستخدامِ آلةٍ حادَّةٍ، أو مفاجأتهِ في الظلام والصُراخِ بوجهِه، أو لِبسِ قِناعٍ مُفزِعٍ والهُجومِ عليه، أو ترويعِه بخَبَرٍ يَطيرُ له قلبُه، ونحو ذلك، عن أبي ليلى قال: حدَّثنا أصحابُ محمدٍ ﷺ، أنَّهم كانوا يَسيرون مع النبيِّ ﷺ، فنامَ رجُلٌ منهم، فانطلَقَ بعضُهم إلى حَبْلٍ فأخذَهُ ففزِعَ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(لا يَحِلُّ لِمسلمٍ أن يُروِّعَ مُسلماً)**[3].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٢) " الأذكار " للنووي، (٣٢٦ـ ٣٢٧).

(٣) رواه أبو داود. في السنن ٥٠٠٤، ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح : (٣/ ٤٠٧) وحسنه كما في المقدمة.

رابعاً : مُراعاةُ مراتبِ الناسِ وأقدارِهم

فليس كلُّ ما يجوزُ مع الصغير يجوز مع الكبير، وليس كلُّ ما يصلُح أن يكون مع من تعرفُه ويعرِفُكَ يصلُح مع من لا تعرِفُه ولا يعرِفك، وما يتقبَّلُه العامَّةُ قد لا يتقبَّلُه وجَهاءُ الناس وأشرافُهم، فيجِبُ على من يمزحُ أن يُراعيَ منازلَ العلماءِ وذَوي الهيئاتِ، وفي ما يُقابِل ذلك، تجنُّبُ المزاح مع السفهاء والحَمقى خشية أن يجترِئوا عليه.

خامساً : ألا يكونَ فيه غيبة

لأنَّ الغيبةَ من كبائر الذنوب، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [**الحجرات:١٢**] وقد بيَّن النبيُّ ﷺ حقيقةَ الغيبة بقوله:

(ذكرك أخاك بما يَكرَه)[(١)].

وكثيراً ما تخرُجُ الغيبةُ في قالبِ المِزاحِ والضحِك، ويغفلُ الناس عن ذلك، لأنَّ الغيبة بهذه الصورة قد لا يكون فيها عداوةٌ أو بُغض لمن يغتابونه، بل قد يكونُ صديقاً حميماً، فيذكرون عنه بعضَ المواقِفِ المُضحِكةِ وهو يكرهُ ذلك، فيقعون في غيبته ولا يُبالون.

سادساً : أن يكون في وقته المناسب

فلكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ حادثٍ حديث، فيكونُ مناسباً حينما يكونُ المقامُ مقامَ

(١) رواه مسلم ٢٥٨٩، وأبو داود ٤٨٧٤، والترمذي ١٩٣٤.

انبساطٍ وفرحٍ، وتكونُ الأجواءُ فيها بهجةٌ، أو يريدُ بالدُّعابة والطُّرفة أن يدخل السرورَ على مَهمومٍ مَغمومٍ، يُزيحُ به عنه الهَمَّ والغَمَّ، ولا يكونُ المِزاحُ مُناسباً مع شخصٍ غيرِ مُتهيِّئٍ لقبوله، لكونه منشغِلاً بأمرٍ آخر ذي بال، أو لكونه في حالِ غضَبٍ وتوتُّر، وما إلى ذلك من الأسباب المختلفة.

قال رجلٌ لسفيانَ بنِ عُيَينَةَ: المزاح هُجنَةٌ ـ أي مستنكَرـ ؟ فأجابه قائلاً:

[بل هو سُنَّة، ولكن لمن يُحسِنُه ويضعُه في موضعِه][1].

فالجدُّ في موضِعِ الهَزلِ مَذمومٌ، كالهَزل في موضِعِ الجدِّ.

ووضْعُ النَّدى في موضِعِ السَّيفِ بالعُلا ... مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضِع الندى

سابعاً : أن يكون بأدب

وذلك بأن يَتَجنَّبَ البَذاءَةَ والفُحشَ والألفاظَ النابيَةَ التي تَخدِشُ الحَياءَ وتقدَحُ بالذَّوقِ العامِّ، والحَقُّ أنَّ العديدَ من النُّكاتِ والطرائِفِ التي يتناقلُها الناسُ في تَسامُرِهم لا تخلو من ذلك !

ثامناً : ألا يكونَ فيه شَيءٌ من الاستهزاءِ بالدين

فإنَّ ذلك من نواقِضِ الإسلام، وهوَ موضوع هذه الرسالة.

---

(١) شرح السنة / للبغوي: (١٣ / ١٨٤).

الاقتباسُ من القُرآن.. وصورٌ من الاقتباس المشروع والممنوع

ما الاقتباسُ ؟

لغةً: قالَ ابنُ فارس:

[قبَس: القافُ والباءُ والسينُ أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على صِفَةٍ من صفاتِ النَّار، ثمَّ يُستَعارُ. من ذلك القَبَسُ: شُعْلَةُ النَّار، قالَ اللهُ تعالى في قِصَّةِ موسى عليه السلام ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾.....][1].

[وقال الليثُ: القَبَسُ: شُعْلةٌ من النارِ يقتبسُهَا أيْ: يأخذُها مِنْ معظَمِ النارِ][2].

اصطلاحًا :

[هو أن يُضمَّنَ الكلامُ ـ شِعرًا كان أو نثرًا ـ شيئًا من القُرآنِ أو الحَديثِ لا على أَنَّهُ منه، كقول الحَريريِّ : "فلم يكن إلا كلمح البَصَر أو هو أَقرَبُ، حتَّى أنشَدَ فأَغرَب"][3].

وعليه يكونُ إسنادُ الكلامِ المقتَبَس إلى الله تعالى أو إلى الرسول ﷺ ليسَ من قَبيل الاقتباس.

والاقتباسُ عندَ البَلاغيِّين أَحَدُ الفنون البديعَية، وأوَّلُ من وضَعَ هذا

(١) معجم مقاييس اللغة (٤٨/٥).

(٢) (تهذيب اللغة) للأزهري/ باب القاف والصاد.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة(٣٨١/١).

الاصطلاحَ فَخرُ الدِّين الرَّازيُّ، وكانَ معروفاً قبلَ الرَّازيِّ باسم التَّضمين.

والاقتباسُ عندَهُم تضمينُ الكلام ـ نَثرًا كان أو شعرًا ـ شيئًا مِن القُرآن أو الحديث، من غَير دِلالةٍ على أنَّهُ منهُما، أي بأَن يكونَ خالياً من الإشعار بـذلك، والإشعارُ به كأَن يقولَ: قالَ اللهُ كذا، أو قالَ رسولُ اللهِ ﷺ.

نقلَ السيوطِيُّ رحمه الله: عن"شَـرح بديعيـةِ ابـن حُجَّـةَ" أنَّ الاقتبـاسَ ثلاثـةُ أقسام:

الأوَّل: مقبولٌ، وهو ما كان في الخُطَبِ والمواعظِ والعهود.

والثاني: مُباحٌ، وهو ما كانَ في الغَزَل والرَّسائِل والقَصَص.

والثالث: مردودٌ، وهو على ضَربَين.

أَحَدُهما: اقتباسُ ما نَسَبهُ اللهُ إلى نفسِه، ونَعوذُ باللهِ ممن ينقُلُه إلى نفسِهِ كما قيلَ عن أَحَدِ بَني مَروان أَنَّه وقَعَ على مُطالَعَةٍ فيها شِكايَةُ عُمَّالِه: إنَّ إلينا إيـابَهُم ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهُم .

والآخرُ تضمينُ آيةٍ في معنى هَزلٍ، ونعوذُ بالله من ذلك كقوله:

أَوحَى إلى عُشَّاقِهِ طَرفُهُ ... هَيهَاتَ هَيهَاتَ لما توعَدون

وردفُهُ ينطِقُ من خَلفِهِ ... لمثل ذا فَليعمَل العامِلون !!.

قال السيوطيُّ رحمه الله: وهذا التقسيمُ حَسَنٌ جدًّا، وبه أقول][1]. انتهى.

(١) الإتقان في علوم القُرآن / للسيوطي(١/ ٢٩٧).

وبهذا التقسيم الأَخير يقولُ العُلماء المحققون، وليس ثمةَ فرقٌ بين الشِّعر والنثر عندهم.

ومما يحرُمُ في الاقتباسِ ما أضافَهُ اللهُ تبارَكَ وتعالى إلى نفسِهِ من كلامِه، كقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ ونحو ذلك.

ومثالُهُ ما أَخبَروني به عن أَحَدِ المشايخ المُبرَّزينَ أنَّهم طَلَبوا منهُ شَيئًا فقالَ لهم: "أَبشِروا، هو عَلَيَّ هَيِّن"!!

ومما يحرُمُ اقتباسُهُ ما أَقسَمَ اللهُ به من مخلوقاته، فإذا اقتبَسَ هذا صارَ من كلامِ المقتبِسِ نَفسِهِ فيكونُ قَسَماً منهُ بغير الله، وهو شِركٌ كما في قولِ بعضِهِم: والتينِ والزَّيتونِ ... وطورِ سينينَ .... وهذا البَلَدِ المحزون ...

ومما لا يجوزُ اقتباسُهُ ما خوطِبَ بهِ الرَّبُّ جَلَّ وَعَلا .. كما وقَعَ في كتابٍ لعَبدِ الرَّحمنِ المرشِديِّ إلى القُضاة .. جاءَ فيه: (يا أَعدَلَ قاضٍ به عِمادُ الدِّين، آمنا بما أَنزَلتَ واتَّبَعنا الرَّسولَ فاكتُبنا معَ الشَّاهِدين).

ومنه ما يَتبادَرُ إلى السامِعِ أَنَّهُ مِن القُرآنِ مع تَغيير بَعضِ الكلِماتِ كقَولِ أَحَدِهِم: والنَّجمِ إذا هَوى .. ما ضَلَّ يَراعُكَ وما غَوى، عَلَّمَهُ شَديدُ القوى، ذو مِرَّةٍ فاستوى)

ومنهُ ما يُعَدُّ مُحاكاةً للقُرآنِ واستِعمالاً لهُ في غَير مَعناهُ كَقَولِ النَّبيهِ يَمدَحُ القاضيَ الفاضِلَ: (لا تسمهُ وَعدًا بغَير نَوال .... إنَّهُ كانَ وَعدُهُ مَفعولاً).

وكَقَولِ القائِل، لمن جاءَهُ وكانَ يرجو حُضورَهُ ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾،

وقولِ الآخَر ـ لمن جاءَهُ من مكانٍ بَعيدٍ، أو كان بمنأى عنه: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ وكقول بعضهم ـ إذا تأخَّرَ عليه مُضيِّفُه في تقديم الطعام ـ: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وإليكَ طائِفَةٌ من فَتاوى بَعضِ العُلَماءِ حَولَ هذِهِ المسأَلَة:

قال الإمامُ بدرُ الرَّشيدُ رحمه الله:

[ومَن استعملَ كلامَ الله تعالى بدَلَ كلامِه، كمَن قالَ في ازدحامِ الناس:(فجمعناهم جمعاً) كفَر][1].

[ومَن قال لمن يَقرَأُ القُرآنَ ولا يَتَذَكَّرُ كَلِمَةً: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾....أو مَلأَ قَدَحاً جاءَ به وقال: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾، أو قال ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ بطَريقِ المِزاحِ، كفَرَ][2].

وقال ابنُ حَجَرٍ الهيتميُّ رحمه الله:

[ومنها أَيضاً: لو قَالَ لمن يَقرَأُ القُرآنَ بالاستِهزاءِ ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أو ملأ قدحاً فقال: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ أو فرَّغ شراباً فقال: ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ أو قال عندَ الوَزنِ أو الكَيلِ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ أو رأى جَمعًا فقَرَأَ بالاستِخفافِ: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ .....كفَرَ، وذلكَ إذا استَعمَلَ القُرآنَ في غَير ما وضِعَ له، بقَصدِ الاستِخفافِ

(١) رسالة في ألفاظ الكفر: ص٦٦.

(٢) المصدر السابق: ص(٧٧- ٧٨).

والاستهزاءِ، بخلافِ استعمالِهِ لا بهذا القَصدِ، ولكن لا تَبعُدُ حُرمَتُهُ، وليسَ كالتَّضمينِ كما هوَ ظاهِرٌ، على أنَّ جَمعًا ـ يَعني من أَهلِ العِلمِ ـ قالوا بحُرمَةِ التَّضمين][1].

وسُئِلَ عُلَماءُ اللَّجنَةِ الدائِمةِ في بلادِ الحَرَمين الشَّريفين، عن استِعمال بَعضِ آياتِ القُرآنِ في المزاحِ ما بَينَ الأَصدِقاءِ، مِثل: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ هل يجوزُ استِعمالُ هذِهِ الآياتِ في المزاحِ ما بَينَ الأَصدقاءِ؟ فأجابوا:

[لا يجوزُ استعمالُ آياتِ القُرآنِ في المزاحِ على أَنَّها آياتٌ من القُرآن، أمَّا إذا كانت هناكَ كلِماتٌ دارجَةٌ على اللسان لا يَقصِدُ بها حِكايَةَ آيَةً من القُرآن أو جُملَةً منه: فَيَجوزُ وباللهِ التَّوفيقُ، وصَلَّى اللهُ على نَبيِّنا محمَّدٍ، وآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم][2].

وجاءَ في قَرارِ مَجمَعِ البُحوثِ الإسلاميَّةِ بالأَزهَرِ الشَّريف:

[إنَّ الاقتباسَ من القُرآنِ الكريم غَيرُ جائِزٍ في المجالاتِ الآتيَة:

أولاً: حَديثُ اللهِ عن نَفسِهِ، فلا يجوزُ لإنسانٍ أَن يَنسِبَهُ إلى نَفسِهِ.

ثانياً: مَواطِنُ الاستِخفافِ والاستهزاءِ والسِّياقِ الهَزليِّ.

ثالثاً: استِخدامُ النَّصِّ القُرآنيِّ لِغايَةٍ مُخالِفَةٍ لِهدايَتِهِ وَمَقاصِدِه.

---

(١) الإعلام بقواطع الإسلام (٢/٣٨٤).

(٢) السؤال الرابع من الفتوى رقم ٦٢٥٢.

أمَّا إذا كانَ الاقتباسُ مِن القُرآنِ الكريم لا يوهِمُ إسنادَ الآياتِ القُرآنيَّـةِ إلى غَيرِ اللهِ، فَهوَ جائِزٌ، أمَّا إذا كانَ الاقتباسُ موهِماً يكونُ حَرامًا][1].

وسُئِلَ الشَّيخُ محمَّدٌ بنُ صالِحٍ العُثَيمينَ رحمه الله السؤالَ الآتي:

كثيرًا ما يَتَناقَلُ بعضُ النَّاسِ أَثناءَ الحَديثِ على أَلسِنَتِهم آياتٍ مِـن القُـرآنِ الكريم، أَو من السُّـنَّة على سَبيلِ المزاحِ، مثالُه: كأَن يَقولَ بعضُهُم: فلانٌ ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ واليومَ رأَينا نون وما يعلمون، وهكذا، ومِـن السـنَّة: كـأَن يقـولَ أَحَدُهُم ـ إذا ذُكِّرَ ونُصِحَ بتَركِ المعصيَةِ ـ يا أَخي (التَّقوى هاهُنا)، أَو قَوله: (إنَّ الدينَ يُسرٌ) وهكذا ... فما قولُكُم في أَمثالِ هَؤلاءِ؟ وما نَصيحَتُكُم لهُم؟

فأَجَاب:

[أمَّا مَن قالَ هذا على سَبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريَةِ، فإنَّهُ على خَطَرٍ عَظـيم، وقد يُقالُ: إنَّهُ خَرَجَ من الإسلام، لأَنَّ القُرآنَ لا يجوزُ بأَيِّ حَالٍ مـن الأَحـوالِ أَن يُتَّخَـذَ هُـزُوًا، وكـذلِكَ الأَحكـامُ الشَّـرعيَّةُ، كمـا قـالَ اللهُ تبـارَكَ وتَعـالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ....الآية﴾.

ولهذا قالَ العُلماءُ، ـ رحِمَهُم اللهُ ـ: من قالَ كلِمَةَ الكُفـرِ وَلَـو مازحًـا، فإنَّـهُ يكفُرُ، ويجبُ عليه أَن يَتوبَ، وأَن يَعتَقِدَ أَنَّهُ تـابَ مـن الـرِّدَّةِ، فَيُجَـدِّدَ إسـلامَهُ، فآياتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ورَسولُهُ أَعظَمُ من أَن تُتَّخَذَ هُزُوًا أو مَزحًا.

أمَّا مَن استَشهَدَ بآيَةٍ على وَاقِعَةٍ جَرَت وحـدَثَت، فهـذا لا بـأسَ بـه، فـإنَّ

(١) من أرشيف قرارات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في مصر.

رسولَ اللهِ ﷺ استشهَدَ بالآياتِ على الوَقائِع، فاستشهَدَ بقولِه تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، حينما جاءَ الحسَنُ والحُسَين يَتَعثَّرانِ في أثوابهما، فنَزَلَ من المنبَرِ ﷺ، وقال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فالاستشهادُ بالآياتِ على الوَقائِع، لا بأسَ به، وأمَّا أن تُنَزَّلَ الآياتُ على ما لم يُرِدِ اللهُ بها، ولاسيَّما إن قارَنَ ذلك سُخريَةٌ واستهزاء،فالأَمرُ خطيرٌ جدًّا][1].

يتبيَّن مما تقَدَّمَ الفَرقُ بينَ تَضمينِ آياتِ القُرآنِ الكريم بطريقَةٍ هَزليَّةٍ وبينَ الاستشهادِ بها في موضِعِها المناسِبِ على وَجهِ التَّعظيم والتَّوقير، فتُذكَرُ الآيَةُ في مَوضِعٍ يصلُحُ فيه الإسقاطُ عليه والتَّمَثُّلُ به، لوجودِ وَجهِ شَبَهٍ على الأَقَلِّ، والغَرَضُ منهُ حُصولُ العِبرَةِ والعِظَةِ، ولا يقترِنُ ذلك بضَحِكٍ أو سُخفٍ من القول.

فلو رأى جماعةً يتركون صلاةَ الجماعةِ وينطلقونَ إلى المقهى مثلاً، فقال لهم: "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خَير؟!" فهذا توظيفٌ حسَنٌ للآيةِ الكريمة، وهو إسقاطٌ صالحٌ على الحَدَث، وإن كانَت الآيَةُ تحكي قولَ نبيِّ الله موسى ﷺ لقومِهِ في شأنٍ آخر.

وكذا لو لقيَ شخصًا صُدفةً من غير ميعادٍ وكان يتمنَّى لقاءَه، فقال عند ذلك: "ولو تواعدتُم لاختلفتُم في الميعاد" فلا بأسَ في ذلك.

قال سُفيانُ بنُ عُيَينَةَ رحمه الله:

[لا تأتونَ بمَثَلٍ مشهورٍ للعَرَبِ إلا جئتكم به من القُرآن، فقال له قائل:

---

(١) لقاءات الباب المفتوح (٦٠/السؤال الأول).

فـأينَ في القُـرآن "أعـطِ أخـاكَ تمـرَةً فـإن لم يقبـلْ فأعطِـهِ جَمـرةً ؟" فقـال: في قوله:{ومن يَعْشُ عن ذِكرِ الرَّحمنِ نُقَيِّض لهُ شَيطانًا}!!][1].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

[وأمَّا إن تلا الآيةَ عندَ الحُكـم الـذي أُنزلَـت لَـهُ أو يُناسِـبُهُ مـن الأَحكـام فحسَنٌ، ومن هذا البابِ ما بيَّنَهُ الفُقَهاءُ من الأَحكام الثابتَةِ بالقياسِ وما يـتكلَّمُ فيه المشايخُ والوعَّاظُ، فلو دُعيَ الرجُلُ إلى مَعصيةٍ قد تابَ منها فقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، وكذا لو قالَ عندَ هَمِّهِ وحُزنِـهِ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ونحو ذلك، كانَ حَسَنًا، ولو قَصَدَ به التِّلاوَةَ والتَّنبيـهَ علـى معنىً يُخاطبُ به للحاجَةِ كانَ جائِزًا، مِثلَ ما قيلَ لِعَليٍّ رضي الله عنه في الصـلاةِ: لـئِن أَشرَكتَ لَيَحبَطَنَّ عمَلُك، فقال: فاصبر إنَّ وعدَ اللهِ حَقٌّ، فهذا ونحوه رخَّصَ فيـه العُلماءُ][2].

---

(١) الفوائد/ لابن القيم، ص١٣٥.

(٢) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية (٢/ ٤١).

فصلٌ في الطرائفِ والنُكاتِ ومشروعيتها

الطُّرفَةُ (النُكتَةُ): هي عِبارَةٌ عن قِصَّةٍ قصيرَةٍ، أو حِوارٍ قَصيرٍ بين طَرَفين أو أكثَرَ، يتضَمَّنُ فِكرَةً أو مَوقِفاً يَستَدعي الضَّحِك.

فالطُّرفَةُ من حَيثُ ماهيتُها كلامٌ، والكلامُ في أَصلِهِ مُباحٌ، لكنَّه تَسري عليه الأَحكامُ التكليفيَّةُ الخَمسَةُ بحَسبِ مَضمونِهِ، فقد تكونُ مُحرَّمةً إذا تضَمَّنَتْ أمراً محرَّماً أو اقترَنَ بها وصفٌ محرَّمٌ، فتكونُ محرَّمةً لأَجلِ ذلك.

وقد تنزلُ عن رُتبَةِ الحَرام إلى الكراهَةِ، وقد تكونُ مندوبةً بحسبِ سياقها وظرفِها، لكن ليسَ منها ما هوَ واجِبٌ ولا رَيب.

فالطُّرفَةُ إذن قد تكونُ كُفرًا وردَّةً إذا تضَمَّنت الاستهزاءَ باللهِ تَعالى أو بدينه أو برُسُلِهِ أو المقَدَّساتِ التي لا يُسمَحُ بالاستخفافِ بها بحال.

وتكونُ مُحَرَّمَةً إذا اقترَنَ بها أَمرٌ مُحَرَّمٌ، كالغيبَةِ والهَمزِ واللَّمزِ، لشَخصٍ أو جَماعَةٍ أو قَومٍ، وكذا السُّخريَةُ منهُم، وإيذاءُ مَشاعِرِهِم وجعلُهُم مَوضِعَ ازدِراءٍ وتَنَدُّرٍ لَدَى السامِعين.

وتكونُ الطرفَةُ محرَّمةً كذلك إذا تضمَّنتْ فُحشاً من القولِ وبَذاءَةً، أو معانيَ جنسيَّةً مثيرةً للغرائِز، ومعانيَ تهدِمُ الأَخلاقَ وتُجَرِّئُ على الفَسادِ والفجورِ وسوءِ الأَدَب.

وتكونُ مكروهَةً إذا أكثَرَ منها المرءُ وزادَت عن حَدِّ الاعتدالِ.

وتكونُ مُباحَةً إذا سَلِمَت من جميع الآفاتِ السالِفَةِ الـذِّكر، وكانـت بمقـدارٍ يسيرٍ لا يقدحُ بمروءةِ عُقَلاءِ الناس، وهو مقدارُ الملحِ من الطعام.

وهي وسيلَةٌ للمُطايبةِ والمُلاطَفَةِ وتسـليةِ المُصـابِ وإدخـالِ السُّـرور عليـه، وتنفيس الغَضَب عن الغضبان، والترويح عن النفس لاستِئناف الجِدِّ والنشـاط في طلَبِ العِلم أو الاجتهاد في الطاعَة، وهو ما ينقُـلُ مرتَبَـةَ الطرائِـفِ في هـذه الأَحوال إلى النَّدبِ والاستحباب، والأُمورُ بمقاصِدِها.

وقد رويَ عن عليٍّ بنِ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه قولُه:

[اجمَعوا هذه القُلوبَ وابتَغوا لها طَرائِفَ الحِكمَةِ فإنَّها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأَبدانُ][1].

وأَخرجَ البَغَويُّ في "شرح السنَّة" عن قسامَةَ بنِ زُهَير:

[رَوِّحوا القُلوبَ تَعي الذِّكرَ][2].

أمَّا حديثُ: (**ويلٌ لِمَن تحدَّثَ بحديثٍ لِيُضحِكَ الناسَ فيكذِب، ويـلٌ لـه، ويلٌ له**)[3]. فقد يُنزِلُه بعضُهم على الطَّرائِفِ و(النكَت) التي لم تقَع في الواقِع، وهيَ من نَسج خَيالِ أَهلِ الفُكاهَةِ، باعتبارها كَذِباً، وغايتُها إضحاكُ الناس.

والحقُّ أنَّ الحديثَ عندَ التأمُّلِ فيـه لا نَجِـدُهُ يـنُصُّ علـى هـذا النَّـوعِ مـن مُستَدعِياتِ الضَّحِكِ، لأَنَّ الكَذِبَ هو أَن يُخبِرَ المرءُ بواقِعـةٍ لم تقَـع علـى أنَّهـا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٠٨/١).

(٢) وكذا في "حلية الأولياء" لأبي نُعيم (١٠٤/٣) عن أبي موسى الأشعري وأبي هريرة، رضي الله عنهما.

(٣)رواه الترمذي: ٢٣١٥ وقال حديث حسن ، وقوى إسناده ابن حجر في (بلوغ المرام/ ٤٤٦) ، وقال الألباني في (صحيح الجامع: ٧١٣٦) : حسن .

وقعَت، ويريدُ إفهامَ السامِعِ أنَّها وقَعَت، كما هوَ الحالُ في البدعَةِ العالميَّةِ الكُبرى التي تُسمَّى "كذبةُ أبريل" حيثُ يُطلِقُ الناسُ في هذا الشهرِ أَخبارًا كاذبةً تبلُغُ الآفاقَ، ومنها ما هو مُرَوِّعٌ، ويُصَدِّقُها الناسُ لأَوَّلِ الأَمرِ، ثُمَّ يُخبرونَهُم بعدَ ذلكَ بأَنَّها مجرَّدُ " كذِبَة أبريل" ليَضحَكوا !!

وأمَّا الطَّرائِفُ، فإنَّها وإن كانَت لم تَقَع فإنَّ السامِعَ لها يعلَمُ مُسبَقًا أَنَّها من نَسجِ الخَيال وفيها مَوقِفٌ مُضحِك، وسياقُ الطرائِفِ مُختَلِفٌ يعرفُهُ السامِعُ، فمَخرَجُها أَقرَبُ ما يكونُ من ضَربِ المثالِ للشَيءِ وإن لم يكُن حَقيقيًّا، وهو من قبيل القِصَّةِ والروايَةِ التي يؤلِّفُها الأُدَباءُ، وهيَ من الفنونِ الأَدَبية التي لم يحرِّمها دينُنا وبقيَت على حُكم الإباحَةِ الأَصليَّةِ، لكِنَّ حُكمَها يختلِفُ باختِلافِ مَضمونِها وغايتها.

والخُلاصَةُ ؛ أنَّ الطرائِفَ ليسَت من قَبيل الكَذِبِ الذي تناوَلَهُ الحَديث، لأنَّ المتكلِّمَ لا يُخبرُهُم بما يُريدُ منهم أَن يُصَدِّقوه، وهُم يُدرِكونَ أَنَّهُ لا يُريدُ منهُم ذلك، والله تعالى أعلم.

ومعَ ذلك فإنَّ الإكثارَ من (النُّكات) المُباحَةِ يُدخِلُها في المحظور، لا سيَّما في وقتِنا الحاضِرِ الذي تقَدَّمَت فيه وسائِلُ التواصُلِ الاجتِماعيِّ إلى حَدٍّ كبيرٍ، وانتَشَرَت المُراسَلاتُ عَبرَ البريدِ الإلكترونيِّ والهواتِفِ النقَّالَةِ ونَحوها، حيثُ أشارَت الدراساتُ والإحصائياتُ إلى أنَّ الرسائلَ المتضمِّنَةَ للنُّكاتِ والطرائِف تحتَلُّ النسبَةَ الأَعلى بَينَ ما يَتَداوَلُهُ الناسُ من الموضوعات !

وهذا إن دَلَّ على شَيءٍ فإنَّما يَدُلُّ على انتِشارِ نَمَطيَّةِ الشَّخصيَّةِ الهزليَّةِ في المجتَمَعاتِ المعاصِرَةِ، وتَدَنِّي مُستَوى الجِدِّيةِ، وهو ما تُهدَرُ بِهِ الأَوقاتُ وتضيعُ به الأَعمارُ، وتُهَدَّدُ به المروءاتُ !

الغفلةُ وخطورتها

إنَّ ممَّا يعصِمُ المرءَ من الوقوع في المعصيَةِ هو تَيقُّظُهُ الدائِم، ويُقابلُ اليقظَةَ الغفلَةُ، وهي نومُ القَلب، وفُقدانُ الحِسِّ، فالغافِلُ لا يدري، ولا يدري أنَّهُ لا يَدري !! فتراهُ سميعاً ولا يَسمَعُ، وبصيرًا ولا يُبصِرُ، قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٨] !

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

قال الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله:

[فإنَّ الغفلةَ نومُ القلب، ولهذا نجدُ كثيرًا من الأيقاظِ في الحِسِّ نيامًا في الواقِع، فتَحسَبُهُم أيقاظًا وهُم رُقودٌ[1]، ضِدُّ مَن يكونُ يقظانَ القَلبِ وهو نائِمٌ، فإنَّ القَلبَ إذا قَويَت فيه الحياةُ لا ينامُ إذا نامَ البَدَن][2].

فمَن أَرادَ اللهُ به خَيرًا بَصَّرَهُ بعيوبِ نَفسِهِ، وهَداهُ لمعرفَةِ عُيوبهِ وأَخطائِهِ، ومَن لم يُرِدْ بِهِ خَيرًا، وكَلَهُ إلى نفسِهِ، وأَعماهُ عَن عيوبها ومَساوئِها، فلا يَزالُ فَرِحًا مَسرورًا بأَعماله، غارقًا في غَفلَتِهِ، حتَّى يأَتيَهُ رُسُلُ رَبِّه لقَبضِ روحِهِ،

(١) هذا اقتباس بديع محمود للآية.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢٨٤/٣).

وحينَئذٍ يُدركُ وقد فاتَ أَوانُ الإدراك، أَنَّهُ كانَ في غُرورٍ وَعَمى، ويبدو له ما لم يكُن في الحُسبان !

قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[**الكهف:١٠٣- ١٠٤**].

وأَخطَرُ مِن ارتِكابِ الذنوبِ هو المكابَرَةُ والعِنادُ والإصرارُ عليها، وإذا نُصِحَ المرءُ لا يَنتَصِح، وإذا ذُكِّرَ لا يَذكُرُ !

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[**البقرة:٢٠٦**].

ماذا يفعلُ من ابتُلي بهذا المرض

لا شكَّ أنَّ الواجبَ على مَن أدرَكَ أنَّهُ مُذنِبٌ أن يفعَلَ ما يفعَلُهُ المذنبونَ من المبادَرَةِ بالتَّوبَةِ النَّصوحِ، بشُروطِها المعروفَةِ، فيندَمَ على ما فرَّطَ في جَنْبِ اللهِ تعالى، ويستَشعِرَ خُطورَةَ المُضيِّ قُدُمًا في هذا الذَّنبِ المُوبقِ، فيُقلِعَ على الفَوْرِ، ويَعزِمَ على عَدَمِ العَوْدِ، ويَسعى في الإصلاحِ بقَدْرِ ما أَفسَدَ، والإحسانِ بقَدْرِ ما أَساءَ، فيَنشُرَ الوَعيَ اللازِمَ بينَ أَقرانِهِ ومَعارِفِه وينصَحَ لهم، ويُذكِّرَهُم بما ينفَعُهم ويُحَذِّرُهُم مما يُفسِدُ عليهم دينَهم وإيمانَهم، وأَن يُريَ اللهَ تعالى من نَفسِهِ صِدقًا وانكِسارًا، لعَلَّ اللهَ أَن يقبَلَ تَوبَتَهُ، ويَغسِلَ حَوبتَه، ويعامِلَهُ بما يعامِلُ به الصادقين، أمثالَ مَخاشِنِ بنِ حُمَير.

لقد كانَ هذا الرجُلُ بينَ القَومِ الذين نَزَلَتْ فيهم آيةُ التوبَةِ، وفيه نزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾[التوبة:٦٦] وله قِصَّةٌ، ذَكَرَها أهلُ التفسيرِ.

قال الإمامُ القرطبيُّ رحمه الله:

[قيلَ: كانوا ثلاثَةَ نَفَرٍ، هَزِئَ اثنانِ وضَحِكَ واحِدٌ، فالمعفوُّ عنه هو الذي ضَحِكَ ولم يَتَكلَّم، والطائفةُ الجماعَةُ، ويُقالُ للواحِدِ على معنى نفسٍ طائِفَةٌ.

واختُلِفَ هل كانَ مُنافِقًا أو مُسلِمًا، فقيلَ: كان مُنافقًا ثُمَّ تابَ توبَةً نَصوحًا،

وقيلَ: كانَ مُسلِمًا، إلا أَنَّهُ سَمِعَ المُنافقينَ فَضَحِكَ لهُم ولم يُنكِرْ عليهم][1].

وقال الإمامُ الطَّبَريُّ رحمه الله:

[وذُكِرَ أَنَّهُ عُنِيَ بالطائِفَةِ في هذا الموضِعِ رَجُلٌ واحِدٌ، وكانَ ابنُ إسحاقَ يقولُ فيما حَدَّثَنا به ابنُ حُمَيدٍ، قال: ثنا سَلَمَةُ، عن ابنِ إسحاقَ، قال: كانَ الذي عُفِيَ عنهُ فيما بَلَغَني مخشيُّ بنُ حُمَيرٍ الأَشجَعيُّ حَليفُ بني سَلَمَةَ، وذلك أَنَّهُ أَنكَرَ مِنهُم بعضَ ما سَمِعَ][2].

ومما يُعينُ العبدَ على تحقيق التوبَةِ ودَوامِها وعَدَم العَودِ في الذَّنبِ، الابتعادُ عَن رُفَقَاءِ السوءِ من الهازلين، واستبدالهم بالإخوان الصالحين الطيِّبين، الذين إذا نَسيَ ذَكَّروهُ، وإذا ذَكَرَ أَعانوهُ، لأَنَّ الصاحِبَ ساحِبٌ، والمُجالِسَ مُجانِسٌ، والمرءُ على دين خَليله.

وعليه أَن يبتَعِدَ كذلكَ عَن المجالِس التي لا يُعَظَّمُ فيها اللهُ تعالى ولا تُراعى فيها حُرُماتُهُ، ويقَعُ فيها المحظورُ من سُخفِ القَولِ وهُجر النُّطق، ويكونُ عاجزًا عن الإنكار وَالنُّصح، لأَنَّ اللهَ تعالى قال:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٤٠].

---

(١) "الجامع لأحكام القُرآن" للإمام القرطبي (٨/ ١٩٩).

(٢) عند تفسيره للآية.

الخاتمة

لقد حاوَلتُ في هذا الكتابِ أَن أَسُدَّ ثغرًا، سَدُّهُ في نظَري من أَوجَبِ الواجبات، لتَعلُّقِهِ بالتَّوحيدِ الذي هو أوكَدُ الواجباتِ على المكلَّفِ، والذي مَبناهُ على تعظيم اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، ولتَهاونِ الناسِ فيهِ إلى حَدِّ الغَفلَةِ المُطبقَةِ، والبَلِيَّةِ المُحدِقَةِ، والمعصيَةِ المُحرِقَةِ.

لقد رَجَعتُ في هذا البحثِ إلى عَشَراتِ المراجِع، واستَقرَأتُ نحوَ آلافِ الصفحات، من كلامِ أهل العِلم والفِقهِ، راجيًا من اللهِ تعالى بعدَ هذا الجهدِ أَن يُكلَّلَ بالقَبولِ الحَسَنِ عندَهُ، ومن ثمَّ لَدى عبادِهِ الذينَ يُحِبُّونَهُ ويريدونَ وَجهَهُ، وقد ابتُلوا بهذا الداءِ، أن يُحدِثَ في حياتِهم نقلَةً نَوعيَّةً فارقَةً، وتوبةً نَصوحًا صادِقَةً، وأن لا تأخُذَهُم العِزَّةُ بالإثم، فقد قامَت الحُجَّةُ، واتَّضَحَتْ المَحجَّة.

قد لا يكونُ الكتابُ كبيرًا في حَجمِهِ، وعَدَدِ صَفَحاتِهِ، لكِنَّني أَعتَقِدُ جازمًا أَنَّهُ كبيرٌ في مَضمونِهِ وفَحواهُ، وأَرجو أَن يكونَ كذلك في أَثرِهِ وانتِفاع الناسِ به، فَلأَن يَتوبَ بسَبَبه آحادُ الناس من سَقَطاتِ أَلسِنَتِهم، أَحَبُّ إليَّ من كذا وكذا، فكيفَ إذا تابَ بسَبَبه آلافُ الناس، وتَواصَوا فيما بينَهم بنُصحِ مَن وراءَهُم، وأقلَعَ جمهورُ المسلمين عن هذا المرَض، وانحسَرَتْ وتلاشَتْ تلكَ الظاهِرَةُ، وهذا ما أَرجوهُ من رَبِّي ذي الجَلالِ والإكرام.

نعَم، هُناكَ فِئامٌ قد لا تتَّفِقُ معي أو مع الكتابِ أو معَ بَعضِ ما في الكتاب، وهذا أمرٌ طَبيعيٌّ، مِثلُهُ لا يُعيقُ الدُّعاةَ والمصلِحينَ في سَيرِهِم وسيرَتِهم في الإصلاح، فإنَّ المُخالَفَةَ والمعارَضَةَ لا يخلو منها زَمانٌ ولا مَكانٌ، لِتَفاوتِ الناسِ في مَدارِكِهم ومَشاربِهم، ولكن ما أُحَذِّرُ منهُ هو أنَّ بعضَ الناسِ إذا قيلَ لَه اتَّقِ اللهَ أخذَتْهُ العِزَّةُ بالإثم، ودافَعَ عن ذاتِه، ورَفَضَ النُّصحَ، لِمَرَضٍ خَفيٍّ، فمثلُ هذا يُخشى عليهِ الهَلاكُ، نَسألُ اللهَ العافيَةَ والسلامَةَ.

وإنَّي ليَحزُنُني أن أَجِدَ أهلَ المبادئِ الساقِطَةِ، والعَقائِدِ الفاسِدَةِ الهابِطَةِ، لدَيهم من الغَيرةِ على مَبادِئِهم ورُموزهِم ما هو أَعظَمُ من غَيرَةِ أَبناءِ الإسلامِ على دينِهِم ونَبيِّهِم ومُقدَّساتِهم!

وقد حدَّثَني مَن أَثِقُ به بهذِهِ الحادِثَةِ:

في إحدى البلادِ العَرَبيَّةِ كانَت البياناتُ العَسكريَّةُ تَذكُرُ غزَواتِ الطائراتِ على العَدوِّ، ثُمَّ يختِمُ المُعَلِّقُ عادَةً بقَولِهِ: "ورَجَعَتْ إلى قواعِدِها سالِمة".

قال: رَكِبَ رجُلان في إحدى حافلاتِ النَّقل، فهَمَّ كُلٌّ منهما أن يدفَعَ الأُجرَةَ، وأخرَجَ كلٌّ منهما نقودَه، فلمَّا سَبَقَ أحدُهما صاحِبَه، أرجَعَ نُقودَه إلى جيبِه وقال: "ورجَعَتْ إلى قواعِدِها سالِمة"، فماذا كان؟!

لقد قامَ أَحَدُ الجالسين في الحافِلَةِ مِن رجالِ الأَمنِ السِرِّيِّ مُغضَباً، وأَخَذَ بيَدِهِ وقال: أَتَهزَأُ بالدولةِ وبالقواتِ المُسَلَّحَةِ وبالرئيس؟! وأَنزَلَهُ من الحافلةِ واقتادَهُ إلى حَيثُ لا يَعلمُ أَحَدٌ.

فيا عَجَبًا لهذه الغَيرَةِ ! ويا عجبًا لهذا الغَضَب ! كيفَ أنَّهُ فَهِمَ كلامَ الرجُلِ بأَنَّهُ سُخريَةٌ من البَيانِ العَسكريِّ، ويلزَمُ من هذا السُّخريَةُ من الدولةِ والرئيس!

ليتَ للمُسلمين مثلَ هذهِ الغَيرَةِ على دينِهم ومُقَدَّساتِهم ! بل يؤسِفُني أن أقولَ: ليتَهُم يَكُفُّونَ ألسِنَتَهم عن الهَزلِ بالدين وأهلِه.

لقد خلُصنا في بحثِنا إلى خَطَرِ هذِهِ الآفَةِ، وأَنَّها قد تَبلُغُ حَدَّ الرِدَّةِ عن الإسلام، وأَعجَبُ ما في الأَمرِ صُدورُها من أَهلِ العِلمِ والفَضلِ وحَمَلَةِ القُرآنِ، وتَهاوُنُهُم الكبيرُ في الوقوع فيها على عِظَمِها، وهيَ في أَعيُنِهم من مُحَقَّراتِ الذنوبِ، بل منهُم مَن لا يَعُدُّها من الذنوبِ أَصلاً !

وما أَصدَقَ قَولِ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه فيهم حينَما قالَ لأَصحابِهِ في عَصرِهِ، وهُم في قُرون الخَيريَّة : [إنَّكُم لتَعمَلونَ أَعمالاً هيَ أَدَقُّ في أَعيُنِكُم مِن الشَّعرِ إن كُنَّا لَنَعُدُّها على عَهدِ النَّبيِّ ﷺ منَ المويقات][1].

[فمَن لم يَتُب من هذا الذَّنبِ العَظيمِ وقَد استَبانَ الرُّشدُ من الغَيِّ فهو على خَطَرٍ بالِغٍ، وجُرمٍ سابغ.

وأمَّا مَن رامَ التوبَ والأَوبَ، فمَن يَحولُ بينَهُ وبَينَ الرَّبِّ الرَّحيم التَّوَّابِ، ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾[القصص:٦٧]

---

(١) رواه البخاري برقم ٦١٢٧ ، باب [ما يتقى من محقرات الذنوب].

فالله هو التوابُ الرحيمُ، يغفِرُ الذنبَ ، ويقبَلُ التوبَ ، ويُفرِّجُ الكرْبَ، قالَ جـلَّ جلالُـه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]

قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رحمه الله:

[وأنَّ مَن استَهزَأَ بشَيءٍ مِن كتابِ اللهِ أو سُنَّةِ رَسولِهِ الثابتَةِ عنه، أو سَخِرَ بذلك، أو تَنَقَّصَه، أو استَهزَأَ بالرسولِ، أو تنَقُّصَهُ، فإنَّهُ كافِرٌ بـاللهِ العظـيمِ وأَنَّ التوبَةَ مَقبولَةٌ من كُلِّ ذَنبٍ وإن كانَ عَظيماً][1].

قد يقولُ قائِلٌ: إنَّ الأَحكامَ في الكتابِ جاءَت شَديدَةً وصادِمَةً، وأُجيبُ عن ذلكَ بأَنِّي لم آتِ بشَيءٍ من عِندي، وكُلُّ مَسأَلَةٍ طَرَحتُها قـد نَقَلـتُ مـن أقـوالِ العُلَماءِ ما يكفي على موافَقَتِها، فدَوري في الكتـابِ هـوَ إبـرازُ أَقـوالِ العُلَمـاءِ والكَشفُ عنها من غَير تَوجيهٍ لها ولا تَحَكُّمٍ فيهـا، وهـيَ مـن الوضـوحِ بمكـانٍ جَعَلَني أَستَغني عَن التَّعليقِ على كثيرٍ منها.

ويُعجبُني أَن أَنقُلَ في هذا المقامِ ما رويَ عن الحسَنِ البَصريِّ أَنَّهُـم سـأَلوهُ: يا أَبا سَعيد، إنَّنا نَصحَبُ أَقوامًا يُخَوِّفونَنا حتَّى تَكادَ قُلوبُنا تَطيرُ!

فقال: [لأَنْ تَصحَبَ أقوامًا يُخَوِّفونَكَ حتَّـى تُـدرِكَ أَمنًـا خـيرٌ لـكَ مـن أَن

(١) تفسير الكريم المنان: ص:٣٤٢.

تصحَبَ أَقوامًا يؤمِّنونَكَ حتَّى تُدركَ خَوفًا][1].

وإن كانَ مِن شِدَّةٍ في الحَقِّ فَهيَ مُمتَزجَةٌ بالرَّحمَةِ والشَّفقَةِ، إذ التَّهوينُ لِعَظائِمِ الأُمورِ وَالمُداراةُ فيها أَمرٌ غيرُ مَحمودٍ، ولله دَرُّ القائِل:

وقَسَى ليَزدَجِروا ومَن يَكُ حازمًا   فلْيَقسُ أَحيانًا على مَن يَرحَم

وقد يَقولُ قائِل:

قد أكثَرتَ من ذكر الشواهِدِ والأَمثِلَةِ في الاستِهزاءِ بالدِّين، ومنها ما يتضمَّنُ أَحيانًا صوَرًا تَدعو إلى الاشمئزاز ؟

فأُجيبُهُ، **أولاً:** بأَنَّ ما تركتُه من الصوَر أضعافُ ما ذكرتُ.

وثانيا: أقولُ ما قالَهُ القاضي عياض:

[وإنَّما أكثَرنا شاهِدَنا معَ استِثقالِنا حِكايَتها لتَعريفِ أَمثِلَتِها، ولِتساهُلِ كثيرٍ من الناسِ في وُلوجِ هذا البابَ الضَنِك، واستخفافِهم فادِحَ هذا العبءِ وقِلَّةِ عِلمِهِم بعظيمِ ما فيه من الوِزرِ، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم، ويحسبونَهُ هَيِّناً وهو عندَ اللهِ عَظيم][2].

في نهايةِ المطافِ والتَّطوافِ، لا أَستَطيعُ أَن أُخفيَ شعوري بالارتياح لإتمام

---

(١) "الداء والدواء" لابن القيم (٥٣، ٥٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٤٠).

هذا العَمَل، والحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تَتِمُّ الصالِحاتُ، وهذا جهـدٌ بَشَـريٌّ غـيرُ معصومٍ، ولا أَدَّعي فيه الكمالَ، فإن أَصبتُ فمِن اللهِ تعالى وبتوفيقه ومِنَّتـه، وإن أخطأتُ فمن نفسي.

أسألُ اللهَ العظيمَ، الحليمَ الكريمَ، أن يَرزُقَنـا الإنابَـةَ والتسـليمَ، والقَلـبَ الخالِصَ السليمَ، وأن يقيَنا العَذابَ الأَليمَ، وأن يجعَلَ هذا العمَلَ كُلَّـهُ صَـوابًا، ولوجههِ تعالى خالِصًا، وألا يَجعَلَ لغيرِهِ فيهِ شَيَئًا، وأَن يَنفَعَ بهِ خَلقًا كثيرًا، إنَّـهُ كانَ عَليمًا قَديرًا.

وآخرُ دَعوانا أَن الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين.

كتَبَـهُ: الفقيرُ إلى عَفوِ رَبِّه
جمال الباشا
١٣ـ ربيع الآخرة / ١٤١١هـ

أهمُّ المَراجع

١. إحياء علوم الدين/ للإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي.
٢. صحيح الترغيب والترهيب/ للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري ، بتحقيق الألباني.
٣. الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة/ عبيد الله ابن محمد بن بطة العكبري.
٤. الصمت وآداب اللسان/ عبد الله محمد عبيد البغدادي أبو بكر ابن أبي الدنيا.
٥. الزهد والرقائق/ عبد الله بن المبارك المروزي.
٦. رياض الصالحين / يحيى بن شرف النووي محي الدين أبو زكريا.
٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين/ محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية.
٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي.
٩. التفسير الكبير/ أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
١٠. صحيح الجامع الصغير / محمد ناصر الدين الألباني
١١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ جلال الدين السيوطي
١٢. لسان العرب / محمد بن جلال الدين الخزرجي ابن منظور.
١٣. معجم مقاييس اللغة / أحمد بن فارس بن زكريا.
١٤. الفتاوى الكبرى / أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
١٥. الجامع لأحكام القُرآن / محمد بن أحمد بن أبي بكر للقرطبي.
١٦. تفسير القُرآن العظيم / للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير.
١٧. شرح ألفاظ الكفر/ بدر الرشيد الحنفي.

١٨. روضة الطالبين وعمدة المفتين/ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي.
١٩. الفصل في الملل والأهواء والنحل/ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.
٢٠. اللمع في الحوادث والبدع/ محمد بن إدريس بن بيديكين التركماني الحنفي.
٢١. رسالة في ألفاظ الكفر لمحمد بن إسماعيل الرشيد الحنفيٌ.
٢٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى/ القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي.
٢٣. شرح الفقه الأكبر/ ملا علي القاري.
٢٤. الفتاوى البزازية / محمد شهاب البزاز الكردي الحنفي.
٢٥. البحر الرائق شرح كنز الدقائق/ زين الدين ابن نجيم الحنفي.
٢٦. الدين الخالص / محمد صديق حسن خان القنوجي.
٢٧. مختصر أخلاق العلماء / أحمد بن علي أبو بكر الجصاص.
٢٨. الصارم المسلول على شاتم الرسول/ أحمد بن عبد السلام بن تيمية.
٢٩. روضة الطالبين وعمدة المفتين/ يحيى بن شرف النووي محي الدين أبو زكريا.
٣٠. كشاف القناع عن متن الإقناع/ منصور بن يونس بن إدريس البهوتي.
٣١. المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار/ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.
٣٢. المجموع الثمين/ محمد بن صالح العثيمين.
٣٣. الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد/ صالح بن فوزان الفوزان.
٣٤. كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد تحقيق: شعيب الأرناؤوط .
٣٥. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد / سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.
٣٦. الوجيز في أصول الفقه/ عبد الكريم زيدان.

٣٧. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة/ محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية.
٣٨. تلخيص كتاب الاستغاثة / أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
٣٩. سلسلة الأحاديث الصحيحة / محمد ناصر الدين الألباني.
٤٠. الشريعة / أبو القاسم محمد بن الحسين الآجرّي.
٤١. تفسير المنار/ محمد رشيد رضا.
٤٢. الحاوي للفتاوى / جلال الدين السيوطي.
٤٣. إخلاص الناوي في شرح إرشاد الغاوي إلى مسالك الحاوي للقزويني/ إسماعيل بن أبي بكر، ابن المقري.
٤٤. إعلام الموقعين عن رب العالمين/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية.
٤٥. الإعلام بقواطع الإسلام / ابن حجر الهيتمي.
٤٦. المنثور في القواعد الفقهية / بدر الدين الزركشي.
٤٧. ردّ المحتار على الدرّ المختار/ محمد أمين بن عمر عابدين.
٤٨. فتح العلام بشرح مرشد الأنام/ محمد بن عبد الله الجرداني.
٤٩. مختار الصحاح/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.
٥٠. القاموس المحيط / مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي.
٥١. تعظيم قدر الصلاة / محمد بن نصر المروزي.
٥٢. واقعنا المعاصر/ محمد قطب.
٥٣. التحفة العراقية في الأعمال القلبية / أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
٥٤. سير أعلام النبلاء/ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
٥٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
٥٦. الحدائق في علم الحديث والزهديات / أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.
٥٧. أدب الدنيا والدين / أبو الحسن الماوردي الشافعي.

٥٨. الأذكار / أبو زكريا يحيى بن شرف النووي محي الدين.
٥٩. الإتقان في علوم القُرآن / جلال الدين السيوطي.
٦٠. جامع بيان العلم وفضله/ أبو الأشبال الزهيري ابن عبد البر.
٦١. الداء والدواء/ محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية.

الفهارس

إقرأ للمؤلف



هذا الكتاب

يتهاون كثير من الناس اليوم في أمر حفظ اللسان، ويدفعهم حبُّ المرح والمزاح إلى إطلاق العنان للسان، يقول ما شاء دون تروٍّ أو تأمّل، بل ويقعُ بعضُ الطيبين من طلبة العلم في مثل ذلك أيضاً، وينسى هؤلاء، وأولئك قول النبيّ عليه السلام: «وإنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنّم».

وإنّ من أخطر زلّات اللسان في هذا الأمر ما يجرّ إلى الاستهزاء بالدين ـ درى القائل بذلك أم لا ـ والله تعالى يقول: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...... ﴾ [التوبة: 65 - 66]

والمؤلّف في هذا الكتاب يُحذّر أشدّ التحذير من كلّ ما يؤدّي إلى الاستهزاء بالدين، ويناقش هذا الموضوع في تأصيل شرعي مع ضرب المثال من الواقع العملي.

فجزى الله المؤلف خير الجزاء على ما أبدى من النصح فأفاد فيه وأجاد، ونفع الله به المسلمين عامّة وخاصّة.

وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

الناشر



دار المأمون للنشر والتوزيع

